أ.د. عماد الدين خليل

العالم ينتظر البديل..
وقضايا أخرى..



العالم ينتظر البديل..
وقضايا أخرى..

- الموضوع: مقالات إسلامية
- العنوان: العالم ينتظر البديل.. وقضايا أخرى..
- تأليف: أ.د. عماد الدين خليل

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

ISBN 978-614-415-303-1

ISBN 978-614-415-303-1

9 786144 153031

- الطباعة والتجليد : المطبعة العربية - بيروت
- الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
- القياس: 15x22 / عدد الصفحات: 248 / الوزن: 320 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com



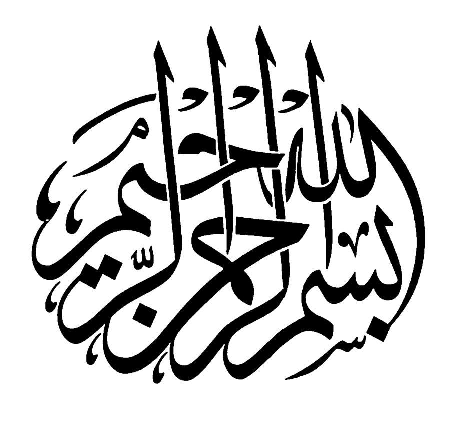
 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

أ.د. عماد الدين خليل

العالم ينتظر البديل.. وقضايا أخرى..






بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

هذا هو كتابي الحادي عشر فيما اصطلح على تسميته (أدب المقالات)... ينطوي على جملة مما كتبته عبر السنوات الأخيرة، في متابعة راصدة لما تشهده الساحة من قضايا وتجارب وتحديات، تتطلب جواباً...

وقد أغنانا هذا الدين بالمعايير المنهجية والموضوعية التي نستطيع بواسطتها الدخول على أية مسألة أو خبرة أو قضية، مما يتجدد في الحياة، فنحيلها إليها، ونقيسها بها، ونخلص بالتالي إلى القول الفصل، أو الحكم العادل الذي يتجاوز الظنون والتخمينات والأهواء: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فبالهدى الربّاني المستقيم كالسهم، الماضي كالصراط، يستطيع المسلم التعاطي مع كل ما يعرض في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، من تجارب وخبرات، جنحت بالسائرين بعيداً عن «كلمات الله»، أي منهجه العادل، ذات اليمين وذات

الشمال، فضيّعتهم، ويجيء هذا الدين لكي يحكم عليها، فيصحّح وقفتها الخاطئة، ويقدم البدائل الصحيحة المنضبطة، من أجل جعل الحياة البشرية بالمستوى الذي أراده لها الله ﷻ، والذي يليق بكرامة الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وابتداء من مقال (يهوذا رشدي) وانتهاء بمقال (وقفة عند بوابة رمضان). مروراً بشبكة من المقالات في السياسة والفكر والتاريخ والحضارة والمنهج. سيجد القارئ نفسه إزاء ما يجب أن يعرفه ويطّلع عليه، لكي يكون جوابه واضحاً قاطعاً كالسكين.

إننا كإسلاميين في حالة جدل متواصل مع خصوم هذا الدين، أو في الأقل مع أولئك الذين لا يكادون يعرفون شيئاً عن ضوابطه ومعطياته وربما بداهاته... وهذا يحتّم علينا أن نتداعى جميعاً للاستجابة لهذا الجدل، وتقديم الموقف السليم الذي يفحم الخصوم، ويردّ الضائعين إلى الطريق.

فأما كتب المقالات العشرة التي سبقت هذا الكتاب فهي حسب صدورها:

١ ـ آفاق قرآنية.

٢ ـ مقالات إسلامية.

٣ ـ مؤشرات إسلامية في زمن السرعة.

٤ ـ في الرؤية الإسلامية.

٥ ـ الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي.

٦ ـ أولى ملاحم القرن.

٧ ـ مذكرات حول واقعة ١١ أيلول.

٨ ـ أمريكا مرة اخرى.

٩ ـ في دائرة الضوء.

١٠ ـ من النافذة الإسلامية.

إنها جهود نصف قرن من الرصد والمتابعة أرجو من الله ﷻ أن أكون قد وفقت فيها، وأن يدخّر رصيدها لي عنده ﷻ... يوم الحساب...

الموصل في ١/٢/٢٠١٣م



١

يهوذا رشدي...

قام أحد الأدباء الأتراك بترجمة رواية سلمان رشدي (الآيات الشيطانية) إلى التركية، وكان ردّ الفعل العنيف الذي جوبهت به المحاولة إحراق الفندق الذي يقطن فيه المترجم، واشتعال تظاهرات التنديد والاحتجاج الجماهيرية الحاشدة في الشارع التركي.

تناقلت وكالات الأنباء والصحافة العالمية والإسلامية والعربية الخبر باهتمام ملحوظ، ليس ـ في معظم الأحيان ـ لما ينطوي عليه من مغزى، وإنما لعنصر الإثارة فيه، وأحياناً، للهجوم الصريح أو المبطّن على ما يسمّيه الخصم بالتشدّد الإسلامي، وكذلك ما يسمّيه الخصم أيضاً باحترام حرية الفكر والرأي والتعبير، وهو الهجوم الذي يجيىء في سياق حملة عالمية شاملة يشارك فيها الاستعمار الجديد والصليبية والصهيونية، ضد ما يسمّونه هم أيضاً: الأصولية الإسلامية.

هذه الأصولية التي تزداد قدرة على التجذّر والانتشار كلما زادت التحدّيات وارتفعت وتائر التضييق والمجابهة، الأمر الذي قاد

بعض قيادات الخصم إلى أن تفقد صوابها وأن تتخذ مواقف إعلامية، أو سياسية، مكشوفة تماماً، مترعة بالنزوع التحريضي والروح العدائية، التي تتجاوز كل مقاييس الصراع الأخلاقي الشريف بين وجهات النظر المتعارضة، يعينها على ذلك وينفّذ مطالبها بعض الزعامات السياسية أو الفكرية أو الحزبية في عالم الإسلام نفسه لأسباب ملتوية غامضة حيناً، عارية مكشوفة في معظم الأحيان.

لقد أريد لتركيا منذ سقوط الخلافة وإحكام القبضة المضادة للإسلام، أن تكون ساحة اللادينية، ومن أجل ضمان الهدف فتحت الأبواب على مصاريعها لكل القوى المضادة للإسلامية، وأتيحت لها الفرصة الكاملة لكي تنفذ جرائمها «الكاملة» باطمئنان وتحت غطاء محكم.

إن مساحات واسعة في مراكز الفعل الإعلامي واتخاذ القرار السياسي ومؤسسات التخطيط الفكري والتربوي، تلقّت، عبر المرحلتين المذكورتين، تأثيرات غربية: امبريالية وصليبية وصهيونية وماسونية، واضحة الثقل، وكانت ردود الفعل لأية محاولة للتهادن مع الإسلام ـ على الأقل ـ في السياسات التركية، عنيفة وسريعة... وشهدت تركيا سلسلة من الانقلابات العسكرية آلت جميعها إلى الطريق المسدود، لكي ما تلبث هذه الأرض الطيبة أن تفيء في كل مرة إلى ساحة الحرية والديمقراطية، بغضّ النظر عن المساحة الحقيقية للمعطيات الديمقراطية في التجارب المتعاقبة.

وأغلب الظن أن قيام أحد الأتراك بترجمة (الآيات الشيطانية) لا يعدو أن يكون محاولة لجسّ النبض، أو الإثارة، أو الاستفزاز، للمشاعر والقوى الإسلامية، التي أخذت تتأكد أكثر فأكثر ـ في ظلال الديمقراطية المجزوءة ـ وتزداد انتشاراً وتجذراً في الساحة التركية قبالة كل محاولات الخصم لإخراج تركيا من الساحة، كرأس حربة لعالم الإسلام في أوربا، وكحلقة ذات جذور تاريخية وحضارية موغلة في إسلاميتها، قد تسترد وعيها بالذات في يوم ما، وحينذاك سينكث الغزل الذي نسجه على مدى قرن كامل حكماء صهيون وتلامذتهم، وقادة الصليبية والاستعمار الجديد.

ولقد جاء الردّ التركي الإسلامي فوق ما يتصوّره الجميع، تأكيداً لما تشهده الآن جغرافية الإسلام كلها: المزيد من التجذّر، والانتشار، والقدرة على المجابهة، والتعبير عن الذات، قبالة المزيد من التحدّيات المضادة، التي تلجأ، كلما حزب بها الأمر، إلى كل الوسائل اللاأخلاقية، كل الأساليب اللامشروعة في محاربة الظاهرة الإسلامية، ليس أقلها بطبيعة الحال تسمية المنتمين الجادّين لهذا الدين بالإرهابيين والمتشدّدين، أو الأصوليين في أحسن الأحوال.

إن (الآيات الشيطانية) عمل أدبي من الخط الثالث أو الخامس، وهي ليست رواية بمعنى الكلمة، إذا أحلناها إلى مطالب وشروط الأنواع الأدبية، وإنما منظومة من الهجمات الرخيصة، والسباب التافه للنبي المعلّم عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد

تكون دوافع تأليفها من قبل كاتب نكرة هارب من جلده المسلم، كسلمان رشدي، معروفة هي الأخرى. ومعروف أيضاً تجذّر الخيانة للعقيدة والمبدأ والأهل والصحب في نفوس الخانعين أو الملتوين أو عبدة الذهب والمال. وأغلب الظن أن سلمان رشدي لا يعدو أن يكون واحداً من هؤلاء: يهوذا آخر، تفرّخه روح الخيانة والمروق في كل زمن ومكان، وقد أعطي ـ للأسف ـ في الهجوم المبالغ فيه من المسلمين، أكثر بكثير من حجمه الحقيقي، وتلقى الخصم الإشارة، فجعله بطلاً مضطهداً وأسبغ عليه الحماية والتقييم.

هذا كله معروف، ولكن الجديد، أن يقوم يهوذا آخر، يهوذا تركي هذه المرة لكي يعيد صنوه الهندي إلى دائرة الضوء، ولكي يستخدم مجرد مخلب قط ذي أظافر تعرف كيف تغوص في اللحم المسلم فتدميه.

لكن المحاولة على أية حال انقلبت على رؤوس أصحابها، وخرجت جماهير المسلمين لكي تعلن عن غضبتها، وتدافع عن مقدّساتها، وتزداد حضوراً وتألقاً في مواجهة التحدّيات... قبالة ألف من يهوذا رشدي أو سلمان الأسخريوطي، الذي تتفنن مختبرات الخصم في إعدادهم لأداء دورهم المرسوم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].



٢

«الإسلام والعروبة...
معاً في مواجهة الإعصار»

على هامش مرور عام
على انعقاد المؤتمر القومي الإسلامي في بيروت

(١)

منذ زمن بعيد وأنا أحلم باليوم الذي يلتقي فيه العربي بالإسلامي... أن توقف رحلة الدم والكراهية والبغضاء... أن يمدّ (الأخوة الأعداء) أيديهم إلى بعضهم متصافحين، وأن يطبع الشقيق على جبهة شقيقه قبلة الصفح والمحبة، التي يذيب دفئها المتوهج كتل الجليد القادمة من بحر الظلمات.

منذ زمن بعيد والسؤال الذي يؤرّقني هو السؤال نفسه: لماذا؟ وهل ثمة ضرورة عقدية أو تاريخية أو حتى عاطفية تقيم بين الإسلامي والعروبي سدّاً؟ تحفر خندقاً يصعب عبوره؟ أو لسنا وفق

هذه الصيغة غير المبرّرة على كل المستويات نعطي لخصمنا الذي يتربّص بنا السكين التي تذبحنا؟

ما الذي جرى عبر خمسين عاماً أو يزيد سوى أن ذبحنا أنفسنا؟ ألم يئن الأوان لأن نستبدل السكين بالكلمة، ونفيء جميعاً إلى باحة الحوار والمحجّة والإقناع... أن نجرّب على الأقل... نبذل محاولة ما لوقف سيّال الكراهية والاصطراع... فمن قال أنها لن تأتي بطائل؟

منذ زمن بعيد وأنا أحلم باليوم الذي يستعيد فيه العربي دوره الإسلامي الضائع، والإسلامي عشقه لكل ما هو عربي أصيل في هذا الوطن!

(٢)

أتلقّى نسخة من مقررات المؤتمر الذي عقد في بيروت في خريف (١٩٩٤)، والذي دُعيتُ إليه مرتين، فاعتذرت لأسباب ملحّة... فمنذ الكلمة الأولى فيها... منذ البدء باسم الله، وحتى آخر فقرة في البيان الختامي، أجد نفسي قبالة الحلم الذي يتحقّق فيصير أمراً واقعاً... الوفاق الضائع في عمق الزمن والمكان يعود فيتشكل بقوة الكلمة المتعشقة للحق ... لكأنما تاريخ هذه الأمة المجيدة سلسلة من التحديات، ومعالم لاستجماع القوة واستنهاض العزائم، لمواجهة هذه التحديات... فالمسجد الأقصى الذي يقع اليوم في الأسر الصهيوني سبق أن وقع في الأسر الفرنجي الصليبي. وفلسطين التي تسعى التسويات الحالية المفروضة إلى

الإجهاز على الحق العربي الإسلامي فيها، سبق أن استعمرت استعماراً استيطانياً فرنجياً ومعها مناطق واسعة من الشام، وقامت عليها للاغتصاب دول وإمارات. لكن أمتنا لم تعرف الاستسلام أمام تلك التحديات... وإنما حافظت على إرادة الصمود والمقاومة، ونهضت من خلف علمائها ومفكريها وقادتها، فغيّرت الواقع الظالم، وطوت صفحة التحدّيات التي فرضها عليها الأعداء... واليوم وعلى امتداد أرض أمتنا العربية والإسلامية، قد تحوّل واقعنا إلى فصل جديد في كتاب التحدّيات...

«... إن المجتمعين قد طووا الصفحة الماضية في علاقاتهم، بما حوت من سلبيات وجراحات بعد أن تمثّلوا عبرتها، فمواجهة التحديات المهددة لوجود الأمة وهوّيتها لا بدّ وأن تجبّ وتطوي كل ما يشغل عنها من صفحات...».

«... والمجتمعون يملكون العزم المشترك على التجدّد الحضاري للأمة وفقاً للنموذج الحضاري المتميز بالعروبة والإسلام...».

(٣)

والتوصيات تجيء في وقتها الملائم قبل أن يضيع الإسلاميون والعروبيون... إن السكين التي تدوّم في الفضاء حادة، واليد التي تمسك بها لا ترحم، والعقل الذي يلوّح بشفرتها ذات اليمين وذات الشمال ليس عقلاً محضاً بمعنى الكلمة، ولكنه حصيلة ألف سنة أو تزيد من رغبة الغربي الدفينة والمعلنة في ألّا يخرج الشرقي إلّا

من معطفه، وألّا يفك وثاقه مختاراً المصير الذي يتوحّد فيه مع ذاته، وعقيدته، وتاريخه، ووجوده.

السكين حادة، وهي اليوم وقد كادت أن تتفرّد بها قيادة غربية واحدة، تنذر بالويل، وما لم نتداع إلى بعضنا، ما لم يمسك أحدنا الآخر، فإننا سوف نضيع.

التوصيات تريد أن تقول هذا بمعطياتها الفكرية والعملية على السواء... تنسج حلقاتها في زمن العتمة، لعل شرارة ما تنقدح في الظلماء فينطلق على هديها المدلجون: «دعم الانتفاضة المجاهدة في فلسطين... رفض التطبيع مع العدو الصهيوني تحت أي صورة وفي أي مجال، وإدانة الخطوات التي تمت لاختراق المقاطعة مع إسرائيل... استنكار حملات الإبادة التي تستهدف شعبيْ البوسنة والهرسك، والتأكيد على حقهما في الدفاع عن النفس وضرورة رفع الحصار المضروب عليهما للتزوّد بالسلاح... العمل على توثيق العلاقات بين الأمة العربية وشعوب الدائرة الحضارية العربية الإسلامية، انطلاقاً من حقيقة أن النهوض العربي متكامل مع نهوض العالم الإسلامي... والدعوة إلى استنفار طاقاتنا العربية والإسلامية لمتابعة تحقيق تجدّدنا الحضاري والإسهام في عمران عالمنا...».

(٤)

وأنت تتابع التوصيات تجد نفسك قبالة حالة وجدانية عذبة سائغ شرابها... حالة لم تكد حياتنا المعاصرة تعرفها أو تستذوقها

منذ زمن بعيد... وهي ليست وجدانية محضة إذا أردنا الحق، ولكنه الوجدان المتعقلن أو العقل الذي يوغل في مسارب الوجدان لكي يُجمع على كلمة سواء، ويتعامل، ويعالج، ويستنهض، ويتحدى، ويستجيب لكل الحلقات المحزنة في حياتنا، عربية كانت أم إسلامية... في الوطن العربي أم في ديار الإسلام على امتدادها... ليس ثمة ها هنا من الخليج إلى الخليج ولا حتى من المحيط إلى المحيط، ولكنه التوحّد الذي تصير فيه قارات العالم وخلجانه وبحاره ومحيطاته، وطناً واحداً، أرضاً متوحدة، ودياراً تتداعى على بعضها، قبالة كل المصائب والأوجاع والتحديات والأحزان التي ما اجتمعت علينا حتى زمن الصليبيين والمغول كما تجتمع اليوم، حيث أمريكا وإسرائيل تعيدان الكرّة بعنف أكبر هذه المرة وأشدّ هولاً...

وخائن منبوذ من لا يفتح أذنيه جيداً للإنصات إلى صوت الإعصار القادم من هناك... نُذُر الفناء التي توشك ألّا تبقي لنا أرضاً ولا عرضاً ولا تراثاً ولا عقيدة ولا عروبة ولا دياراً!

ها هي ذي التوصيات تحدثك عن هذا، تشير إليه، حلقة حلقة، ومفردة مفردة... ليس ثمة ها هنا قضية عربية وأخرى إسلامية... هنا يصير الإسلام عربياً ويصير العربي إسلامياً... ها هنا الكل يتذكر نذير «نزار القباني» الذي أطلقه منذ أواخر السبعينيات فلم يستمع إليه أحد:

لا يمين يجيرنا أو يسارٌ   تحت حدّ السكيّن نحن سواء

(٥)

تتداعى في خاطري... في العقل والقلب معاً... تتدفق في تيار الوعي واللاوعي كل صور التعاشق والالتحام بين العربي والإسلامي في تاريخنا الطويل الموغل في المسافات... كلمات الله التي ترفع النداء المرة تلو المرة:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ [طه: ١١٣] ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]...

دفق من الآيات تتصادى في كتاب الله، تضع العربية والعرب في مكانهما الحق... الأهل والعشير الذي سيستقبل الكلمة ويتعذب من أجلها... يضحي ويستشهد ويمضي بها إلى نهاية الشوط، الذي أريد له أن يكون حلقة الوصل والمفتاح بين جزيرة العرب، موطنهم الأصيل، وبين العالم الذي سيطاح بقياداته الضالة وطواغيته وأربابه، لكي ما يلبث المشروع الإسلامي الذي يخرج به العرب، يحمل شهادة التوحيد والفتح والتحرير، أن يحتضن التركي والفارسي والكردي والصيني والهندي والبربري والزنجي، وكل الناس والجماعات والشعوب الطيبة في هذا العالم.

رسول الله (ﷺ) وهو يبذل في سنواته الأخيرة جهداً استثنائياً في (ذات السلاسل) و(مؤتة) و(تبوك) و(حملة أسامة)،

من أجل فك الارتباط بين القبائل العربية وقيادتها البيزنطية الجائرة، لكي يعيدها إلى حضن الأم التي شردت عنها، ويوظفها ـ من ثمّ ـ ليوم الفتح الذي سيغيّر خرائط الدنيا.

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو يرفع شعاره المعروف «**العرب مادة الإسلام**» و «**إذا ذلّ العرب ذل الإسلام**»... ويقيم بين الفاتحين وخصومهم سدّاً من التميّز، الذي يبقيهم على أصالتهم فلا يسوقهم إلى الضياع...

الفاتحون وهم يندفعون في ديار العراق والشام والجزيرة الفراتية، فيجدون في بعض القبائل العربية التي ظلّت على نصرانيتها اليد التي تعينهم في مهمّاتهم الكبرى، وتضع قدراتها تحت تصرّفهم وهم يهدمون العالم العتيق.

المصريون الأقباط، أخوال إبراهيم ابن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهم يستقبلون المحرّرين القادمين من جزيرة العرب ويفتحون لهم قلوبهم، وينطلقون معهم لتحرير الأرض من طاغوت الروم الذي أذاق المصريين من صنوف التمييز المذهبي ما يشيب له الولدان.

والخواطر تتداعى كسيّال لا يكف عن التدفّق، منطوياً في اللحظة الواحدة على صنوف الصور والمرئيات والتجارب والخبرات... وكلها تتمحور عند هدف واحد... معنى واحد... بؤرة واحدة، حيث تصير العروبة والإسلام شيئاً فريداً متوحّداً...

وأتذكر، وأنا أسلم نفسي للتيار، مدرّس العربية المسيحي (يعقوب عيسكو)، الذي كان كتاب الله يدهشه، فكان يتخذه أساساً

لتدريس طلبته في إعدادية الموصل: اللغة العربية... أتذكر ايضاً (توفيق السمعاني)، الصحفي المسيحي المعروف، وهو يحدّثني كيف أنه صبيحة كل يوم لا يحلو له أن يمضي إلى عمله قبل أن ينصت بجوارحه كلها لآيات من القرآن الكريم يرتلها (الشيخ محمد رفعت) أو (الشعشاعي) أو (أبو العينين)...

تاريخنا حافل بمعطيات الصدق والمحبة بين مواطنين عرب في دولة واحدة، انتموا لأديان شتى ولكنهم وجدوا في مظلّة الإسلام، المظلة الوحيدة في العالم التي يمكن أن يلتقي عليها المنتمون لهذا الدين وغير المنتمين إليه، فيما لم تشهد له البشرية مثيلاً...

تقتحمني ـ أيضاً ـ مقولة المستشرق البريطاني المعروف (سير توماس أرنولد)، الذي أفنى عمره وهو يبحث في تاريخ الدعوة إلى الإسلام وسبل انتشاره، وهي أنه على مدى ثلاثة عشر قرناً لم يعثر على حالة واحدة... واحدة فقط... أُكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام. فلو أن الإسلام، بتميّزه وتألّقه، استخدم القوة أو القسر تجاه غير المسلمين، لما بقي في ديار الإسلام مسيحي واحد، ولكن ها هم الآن يملكون حضوراً ملحوظاً.

والفرص التي أتاحها المسلمون، قيادة وقواعد، لمواطنيهم من غير المسلمين في الحياة العامة والاقتصاد والمال والإدارة... في النشاط العلمي والسياسي... في الاستقلالية الدينية الكاملة؛ ما أتيحت في أية تجربة أخرى في تاريخ البشرية. لقد أصبحت

العلاقة بين الطرفين، بوضعها هذا الذي يستمد نسغه من سماحة الإسلام وفضائه المفتوح «للآخر» على مصراعيه؛ مثلاً يضرب على قدرة الشعوب التي تتغاير أديانها وعروقها، على التعايش المشترك تحت مظلة الله.

(٦)

وأتساءل بيني وبين نفسي: إذا كانت العلاقة بين العربي والعربي معجونة بهذا القدر من النبل والمحبة والتكافل، وهم على عقائد متغايرة، فكيف يمكن أن تكون بين العربي والعربي اللذين ينتميان للإسلام؟

ما الذي حدث لكي ينتهي الأمر بأن يدير أحدهما ظهره للآخر، وتتحفز الأيدي في السرّ والعلن، لكي تمسك بالخنجر الذي يغوص في اللحم... ولماذا؟

ألم يخطر على البال، لحظة واحدة، أن ثمة «مؤامرة» من نوع ما سعت ولا تزال لتنفيذ هذه القطيعة وتأكيدها في حياتنا المعاصرة، التي نسجت بداياتها الأولى مع دخول أوّل جندي أجنبي إلى ديارنا منذ أكثر من قرنين من الزمن؟



٣

تعقيب على مقال (التصالح مع التاريخ أوّل شروط الإصلاح) لعادل حزين (من نيويورك)!!

إنه لأمرٌ معروف أن يدسّ الجهلة والأميون أنوفهم في قضايا العقيدة والشريعة والتاريخ، لأسباب معروفة هي الأخرى قد يرجع بعضها إلى التواءٍ فكري أو نفسي، وقد يرجع بعضها الآخر إلى إغواء ماديٍّ أو أدبيٍّ يُستدرج من خلاله الجهلة والمغفلون إلى مواقع الحقد على هذا الدين والكيد له.

هذه أمور معروفة تماماً، لا تستحق لتفاهتها حتى الالتفات إليها، وينطبق على أصحابها قول الشاعر:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فما أضرُّها وأوهى قرنَه الوعلُ

ولكن ما هو غير مألوف في النشاط الصحفي الجاد، الذي يحترم نفسه وقرّاءه، هو السماح لغثاء كهذا في أن يأخذ طريقه للنشر على صفحات الجرائد والمجلّات.

وليس ثمة تفسير لهذا إلّا بإحدى اثنتين لا ثالثة لهما:

أولاهما، عدم جدّية القائمين على التحرير ومتابعتهم لكل ما يرسل إليهم بالإخلاص المطلوب، ومن ثم تمرير مقالات كهذه التي نتحدث عنها، تتناقض ـ ابتداء ـ مع بداهات الأمة: عقيدة وشريعة وحضارة وتاريخاً، ولا تملك من أسباب البحث العلمي الجاد شيئاً...

وأما ثانيتهما، التي يصعب التسليم بها، فهي وجود قصدية مسبقة في ترويج سخف كهذا، يستهدف تدمير ثقة أبناء هذه الأمة بأنفسهم وعقيدتهم وتاريخهم.

فبعد احتلال العراق، ومحاولة المحتل تنفيذ ما يسميه هو بالمشروع الديمقراطي، أتيحت حرية القول لكل من هبّ ودبّ، ووجدت بعض الاتجاهات المدسوسة والمسمومة فرصتها للكتابة في هذه الصحيفة أو تلك، من بين عشرات الصحف ومئاتها، التي غطت أرصفة الشوارع، تهجماً على الإسلام، ونبيّه، وكتابه وتاريخه وحضارته، وملء الصفحات المترعة خبثاً ومكراً وكيداً بهذا السخام الأسود، الذي لا يصدر إلّا عن نفوس مريضة معقدة جاهلة، أو عقول تبيع وتشتري بالقيم والمبادئ، كما تباع وتشترى الفاكهة والخضار والأشياء... فبإغراء بمبلغ مغرٍ من المال يمكن لبعض الناس ممن لا ضمير لهم ولا دين ولا عقيدة، أن يبيعوا حتى شرفهم، إذا درّ عليهم ذلك المزيد من العطاء...

وهي حالة ليست جديدة في التاريخ، ولكنها قديمة قدم

الإنسان، إلّا أنها بدأت تستشري تحت مظلة الاحتلال، وبحمايته وتأييده، لكي تطال كل مقدّس ونبيل في شخصية الرسول (ﷺ)، وعبر تاريخ الإسلام...

وإذا كانت قباحات كهذه قد تؤثر في قلّة من الحاقدين، إلّا أنها لن تزيد الأسوياء إلّا اعتزازاً بدينهم وعقيدتهم ونبيهم العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام...

ولقد رأينا جميعاً، وبأمّ أعيننا، كيف وحّد (الكاريكاتير الدانيماركي) شعوب الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط، وحرّكهم للدفاع عن أعزّ ما يملكون: وهو نبيّهم وقائدهم عليه أفضل الصلاة والسلام... أفيكون بمقدور تفاهات كهذه التي تنشر في بعض الصحف المأجورة، أن تعكس الظاهرة وتكسب جيوشاً جرّارة من المؤيدين؟

إنها مسألة مستحيلة بأي منطق، ولن يخرج منتصراً في نهاية الأمر إلّا الحق وأهله...

وعسى أن تكون كلمتي الموجزة هذه فرصة للتناصح بين القرّاء وبين القائمين على تحرير بعض الصحف والمجلات، كي لا يعودوا مرة أخرى لنشر غثاء كهذا، أحرى أن يكون مكانه حاويات القمامة، وليس صفحات جرائد يراد لها الانتشار الواسع بين القرّاء!!



٤

التوازنات الطبيعية بين الله والإنسان...

حذّر (بيتر باريت) من جامعة فكتوريا في ويلنغتون بنيوزيلندا، مؤخراً، من ارتفاع مستوى مياه البحر ستة أمتار خلال أقل من قرن من الزمن، بسبب ذوبان الغلاف الجليدي الغربي للقطب المتجمد الجنوبي.

ولاحظ ـ لحسن الحظ ـ استقرار الغطاء الشرقي للمحيط الذي تبلغ مساحته خمسة أضعاف الغطاء الغربي.

وتعتبر الغازات الصادرة عن النشاطات الإنسانية والصناعية، والمسؤولة عن ارتفاع حرارة الأرض، وراء ذوبان الغطاء الجليدي الشديد الحساسية للمتغيرات المناخية...

وقال خبير آخر في معهد نيوزيلندا للعلوم الجيولوجية والنووية وهو (تيم نيش)، بأن هذه التغيرات قد تؤدي ـ خلافاً لذلك ـ إلى إشاعة عصر شبه جليدي بسبب وصول المياه الباردة إلى تيارات المحيط...

وهكذا، وعندما دخل الإنسان باندفاعه، وغروره، وتجبّره، ورغبته العاتية في التكاثر بالأشياء، على صنع الله سبحانه، المحكم، الدقيق، المنضبط، فتح بوابة الفساد الكبرى في فيزياء العالم والكون القريب، وهو آخذ في التوسع والازدياد حتى يؤذن بيوم الهول الذي لا ريب فيه!!

فبسبب الأنشطة الصناعية المتورمة ارتفعت حرارة الأرض، تلك التي ستقود إلى ذوبان الغطاء الجليدي الشديد الحساسية للمتغيرات المناخية، وبالتالي تعرّض العالم لعشرات (السونامي) الرهيبة التي ستغرق مساحات واسعة منه، وتأتي على الأخضر واليابس.

وقبل هذا، فإن ارتفاع حرارة الأرض فيما سماه العلماء بالزحف الحراري، قد ألحق بالناس كافة، في مشارق الأرض ومغاربها، من الأذى والخسائر في الأرواح ما تتحدث عنه وكالات الأنباء صباح مساء...

والأنشطة الصناعية المتكاثرة كالسرطان على سطح الكرة الأرضية، لا تقف عند حدود رفع درجة الحرارة وتذويب الجليد، وما يترتب عليه من مصائب وويلات، وإنما هي أيضاً من أشد عوامل تلويث البيئة، وتهيئة الظروف المواتية لتزايد الحالات المرضية، النفسية والجسدية، ولتكاثر حالات السرطان، التي أخذت تنتشر في صيغة متوالية هندسية، قد تأتي على الكثير من سكان هذا العالم البائس المنكود.

وتجارب تدشين القنابل الذرية والهيدروجينية والنيوترونية، في أماكن مختلفة من العالم، دخلت هي الأخرى على خط إفساد فيزياء العالم منذ أربعينيات القرن الماضي، ثم ما لبثت أن راحت تزداد في الكم والنوع، فيما يؤذن بالمزيد من الخلل، ليس في بنية العالم فحسب، وإنما في الكون المحيط.

فها هو ذا الانكسار الخطير في طبقة الأوزون يدخل عاملاً مضافاً على المتغيرات الحرارية في العالم، وينذر بالويل والثبور...

ليست هذه الكلمات دعوة للكفّ عن التقدم التكنولوجي، ووقف المصانع عن العمل، فهذا لا يخطر على بال عاقل، وإنما ترشيد التقدم التقني، واللهاث الأسطوري الخطير وراء التكاثر بالأموال والأشياء، والتنامي بالقوة المسلحة، من أجل حماية العالم من الفساد الكبير... والفساد الكبير هو هذا الذي نراه بأعيننا، ونلمسه بأيدينا، ونكتوي بويلاته الراهنة، وسنكتوي أكثر فأكثر في الزمن القادم الذي قد لا يبعد كثيراً...

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

لعلهم يرجعون إلى عالم محكم في هندسته، منضبط في حركته، موزون في معادلاته، جميل في معطياته، كما أراد له الله

سبحانه أن يكون، وليس كما يريد أولئك الذين فقدوا (الحكمة) من وراء تعاملهم مع (التقنية)، واندفعوا لا يلوون على شيء، ومن ورائهم عالم يوشك على الخراب!!



٥

الشيطان يضحك...

بعنوان (تعديل جديد على قانون قديم) يقول (نزار قباني) في إحدى مقطوعاته النثرية التي تضمنها ديوان (قاموس العاشقين):

«إن تلاقى رجل وامرأة في حجرة

خرج الشيطان مهزوماً

لكي تدخل أزهار الربيع...».

ليس قانوناً قديماً هذا الذي يتوهمه الرجل أو يوهم به الآخرين، لكي يتولى تعديله!! ولكنه حديث شريف **«إذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما»**.

ولكن الشاعر يريد أن يمارس عملية التفاف الرجل من أجل تحقيق هدفه... وهذه ليست أول ولا آخر مرة تمارس فيها محاولات التفاف مكشوفة كهذه!

والحديث الشريف يطرح دائماً حقائق قاطعة كالسكين... ليس

هذا فحسب، ولكنه يضمّن معطياته كافة أوجه الحقيقة عندما تكون الأخيرة مركبة، متعددة الأوجه والاحتمالات...

فها هنا، بصدد انفراد رجل بامرأة، لا يمكن إلا أن يكون الشيطان حاضراً!! والشيطان لا يمارس مهمته بصيغة واحدة متكررة، أو شكل لا يقبل تغيراً أو تبديلاً... على العكس، إنه يملك من الأساليب المتغيرة، المتنوعة، المتجددة، ما يجعله أقدر على دخول قلوب بني آدم والعبث بها...

إن مسالكه إلى مكامن القلوب عديدة متشعبة، وهو يعرف جيداً كيف يتلوى، ويتخفى، ويغير المدخل في كل مرة، وينساب إلى الداخل من شعاب لم يكن قد اجتازها من قبل، عندما يجد الموانع والمتاريس تقف في هذا الدرب أو ذاك، تصدّه عن المضيّ إلى هدفه...

إنه يطرق الأبواب أحياناً وبيده فعلاً باقة ورد، أو بطاقة تهنئة ملونة... ويطرقها حيناً آخر بمقطوعة موسيقية أو قصيدة شعر جميل... وقد يدخل مباشرة عندما يكون الطريق سهلاً... فلا أزهار، ولا أغانٍ، ولا قصائد ولا بطاقات!!

ولكنه في كل الأحوال يبتغي شيئاً واحداً... هدفاً لا يحيد عنه أبداً، ويكافح من أجل بلوغه دون كلل أو ملل...

ذلك هو الإغواء!!

تلك هي مهمته الأبدية... وكاذب دجال من يتصور أن

الشيطان يمكن أن يتوخى لبني آدم سبل السعادة والمحبة والأمن والوفاق!

إنه لا شيطان الشعر والإلهام، ولا شيطان الشهوات والآثام، بمبتغِيين للإنسان ما ينفع الإنسان...

فمنذ لحظة التحدّي الأولى، التي حدّد فيها إبليس موقفه تجاه المخلوق الجديد... المخلوق الكريم الذي بعثه الله لكي يعمر الحياة، ويزين العالم، ويمارس مهمته العمرانية التي أنيطت به تكريماً وتقديراً، وحتى يوم الفصل... كانت مهمة الشيطان وستظل هي... هي... لا تتغير ولا تتبدل، على تغير الخطط وتبدل الأساليب: التضليل، ولا شيء غير التضليل...

ثم... ولنكن صرحاء ونتساءل عن طبيعة التجربة المتحققة على حيز الواقع، عند كل لقاء يتم بين رجل وامرأة... رجل قادر وامرأة جميلة بطبيعة الحال!! وليس وفق صيغ اللقاءات الثنائية الأخرى، التي لا تتوفّر فيها شروط التأثير والتأثر، ولا تتحقق الخلوة على الأقل في حدودها الدنيا من حيز الزمن والمكان.

و (نزار) يريد على وجه التأكيد هذا النوع من اللقاء، كما هو واضح من كلماته تلك... فأية تجربة متحققة ها هنا غير الميل الفطري الأبدي لدى الطرفين أحدهما تجاه الآخر، والذي قد يقود، إذا غابت ضوابط الالتزام الديني أو الأخلاقي أو الإنساني، إلى نهايته الطبيعية، وهي السقوط؟

من يصدّق أن الشيطان سيخرج مهزوماً؟ ومن يقول بأن

أزهار الربيع لا تدخل لكي تنث عطرها وتضمخ الأجواء؟ إن هذا لا يمنع ذاك أو يحجبه بل على العكس؛ فإن الشيطان هو الذي سيتولى مهمة إدخال الأزهار، ونث العطور، لكي يجعل الأجواء أكثر إثارة وأقدر على تحقيق التأثر والتأثير...

إن الشيطان لا يعمل بدون ديكورات تغطي الجدران القبيحة للممارسة الخاطئة... ومساحيق تضع الأصباغ على الوجوه، التي تجعّدت بفعل الخطيئة والنيات السوداء!

إن الحب الأفلاطوني... غراميات مجنون ليلى... وكثيّر عزة... وروميو وجولييت... لهي استثناء من قاعدة أوسع بكثير وأكبر بكثير... والاستثناء كما هو معروف يؤكد القاعدة ولا ينفيها.

والدليل ما يؤكده (نزار) نفسه عبر جلّ دواوينه، من أن اللقاءات الثنائية بين الرجل والمرأة ما كانت تكتفي بالوقوف عند شواطئ اللحظات الشعرية الحالمة، بل إن الرجولة والأنوثة تسوق حتماً، حيثما توفرت الشروط، إلى الخطوة التالية.

والخطوة التالية هي التي يريدها الشيطان، ويرسم لها، ويتحفز لتنفيذها...فأية هزيمة للشيطان هذه التي يتخيلها رجلٌ كان الشيطان يختبئ في جيبه عبر أربعين سنة أو تزيد...

إن المرء ليتخيّل الشيطان نفسه يستغرق في الضحك وهو يقرأ هذا المقطع... ولكنه ما يلبث أن يكفّ عن الضحك، ويحسّ بارتياح عميق وهو يجد قدّامه حشوداً من الشعراء وغير الشعراء،

يسعون للالتفاف على كلمات الرسل والأنبياء من أجل أن يضلّوا بني آدم...

وهو الهدف ذاته الذي نذر شاعرنا له نفسه في معظم دواوينه... أما البقية الباقية منها، وبخاصة بعض روائعه السياسية، فتستحق التقدير والإعجاب... بل أكثر من التقدير والإعجاب... إذا أردنا أن نكون منصفين!



٦

العالم ينتظر البديل...

في منتصف الخمسينيات بلغت الحضارة الغربية قمة منحناها، وكانت مقولة أرنولد توينبي حول تفوّقها، واحتمالات ابتلاعها للحضارات المنهارة التي تدور في فلكها، وبضمنها الإسلامية، أمراً معقولاً... وكانت قيادتها قد آلت إلى أمريكا، التي بدت بالمقارنة مع الدول الاستعمارية العتيقة، كبريطانيا وفرنسا، اللتين سامتا الشعوب المستضعفة المرّ والعذاب والابتزاز، وبالمقارنة مع الاتحاد السوفياتي بقسريته وآليته العاتية، بمثابة الدولة المحرّرة الواعدة بالخلاص!!

كانت، بالنسبة للكثيرين من المبهورين بالحضارة الغربية، تمثل الوجه الجميل، وكانت أمريكا نفسها، من أجل التحقق بزعامتها، وإغواء دول العالم الثالث، والحلول محل الاستعماريات القديمة، تحرص على تلميع هذا الوجه، بحيث إن كتاباً كـ (أمريكا التي شاهدت) للشهيد سيد قطب، كتب في تلك المرحلة (بداية الخمسينيات) يُسطى عليه من قبل المخابرات المصرية، ويمنع نشره...

لم تكن أمريكا مستعدة لتشويه وجهها (الجميل) وهي مقبلة على تدشين قيادة العالم، وإخراج منافساتها من الساحة...

لكن بعد مرور أقل من عقد فحسب، وبخاصة في أعقاب اغتيال (كندي) وتسلّم (جونسون) السلطة، ومجازفة فيتنام، وانكشاف الوجه القبيح لأمريكا، واكتشاف دورها في العديد من الانقلابات العسكرية في دول العالم الثالث، تغيّرت الصورة، ولم تعد أمريكا نفسها تكتم تشويه صورتها، بعد أن تحققت بالقوة والسيطرة، بحيث أن رواية تؤلف بعنوان (الأمريكي البشع) تحكي عن مخازيها في فيتنام، تأخذ طريقها للنشر دون أن تكترث الجهات الأمريكية.

ثم تجيء المرحلة التالية، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وتفرّد أمريكا بقيادة العالم، تحت مظلة النظام الدولي الجديد، حيث لم تعد تكترث بأية صورة مشوهة قد تعطى عنها، بل على العكس، إنها تتعمد، كما حدث في عهد بوش الابن، أن تكشف عن هذا الوجه لكي تقول للناس: ليس ثمة ما يتهددني... فأنا سيّدة العالم!!

على المستوى الحضاري تغيّرت المعادلة، بعد إذ وصلت الحضارة الغربية الطريق المسدود... والآن، فإن العالم ينتظر البديل، قصر الوقت أم طال، ولن يكون هذا البديل سوى إسلامياً، أو في الأقل مشاركة إسلامية في إعادة صياغة مصير العالم،

فيما يعترف به ويؤكده مفكرو الغرب وكتابه وفلاسفته، بعد إذ درسوا كل صيغة واستعرضوا كل بديل فلم يجدوا فيها الجواب...

فنحن إذن المطالبون بصياغة المشروع الحضاري البديل وتقديمه للبشرية، بعد إذ أخفقت كل النظم والمبادئ الغربية الواحدة تلو الأخرى: نظرية تفوق الرجل الأبيض، الاستعماريات العتيقة، الشوفينيات الكبرى، الوجودية، الماركسية اللينينية، ثم ها هوذا النظام الرأسمالي يتعرض لاهتزازات عنيفة، ويصل إلى طرق مسدودة.

وإذا كان عالم الإسلام في خمسينيات القرن الماضي يلفظ أنفاسه، ويكاد يتلاشى في حضارة الغرب، فإنه اليوم يجد ذاته، أو ـ بعبارة أدق ـ يتحتم أن يجد ذاته، لأن العالم ينتظر منه إشارة الخلاص... وتلك هي سنة الله في خلقه، ومداولة الأيام بين الناس...

إن محفّزات المحاولة كثيرة، ومن بينها وصول الحضارة الغربية إلى الطريق المسدود، وعجز النصرانية المحرّفة، وانقفال اليهودية، ولا واقعية البوذية والأديان الشرق أقصوية، وانهيار الوضعيات الاستعمارية، والشوفينية والوجودية والشيوعية، والهزّات العنيفة التي أصابت الرأسمالية... فضلاً عن وحدة العالم، والتبادل السريع للتأثير في ظل العولمة، وازدياد الوعي وتراكم الخبرة، وتطابق مؤشراتها مع المعطى الإسلامي... وقوة الجذب في الإسلام، وانسجامه مع مطالب الإنسان... هذا إلى قيمة التوحيد

الكبرى في هذا الدين باعتبارها عملاً تحريرياً في مجابهة كل صنوف الضغط، والابتزاز، والاستلاب، والقهر، والحتميات بأشكالها وصنوفها كافة...

ولكن، وبالتأكيد؛ فإن هناك في المقابل معوّقات كثيرة لا يكاد يحصيها عدّ، تقف، أو ستقف في مواجهة المحاولة... بعضها يجيء من الداخل، من مثل التشبث بالمظهرية الدينية بعيداً عن الجوهر والمغزى، وانعدام الثقة بالذات، وغياب الفقه الحضاري، وعدم اختيار عناصر التأثير في العقل والوجدان الغربي، وضياع أولويات العمل وخطط وبرامج التنفيذ، وإعاقة النخب المتغربة والزعامات المعادية للدين في الديار الإسلامية.

وبعضها الآخر يجيء من الخارج، متمثلاً بدور الاستعمار الجديد والغزو الثقافي... والجهود الأسطورية التي تبذلها وترسم لها القوى الدينية المضادة صليبية وصهيونية...

لكن هذا كلّه لا يبرّر الكفّ عن المحاولة، ولا يدفع إلى وقفها عن المضيّ إلى أهدافها المشروعة لصالح الإنسان في العالم كله... فقط إذا خلصت النيّة وأُحسنت صيغ العمل...



٧

العبودية للتاريخ...

يعاني العديد من أبناء هذه الأمة من مأساة ما يمكن تسميته «العبودية للتاريخ»، فيصرفون همّهم كلّه باتجاه معاينة أحداث العصر الراشدي، من مثل الردّة والسقيفة والفتنة والجمل وصفّين... الخ، وينسون المطلب الأشد إلحاحاً وهو أن يكونوا في قلب العصر، قادرين على المشاركة في إعادة صياغة المشروع الحضاري الإسلامي البديل، قبالة الفراغ الذي أحدثه تساقط وانهيار المذاهب والعقائد والتجارب الوضعية والدينية المحرّفة.

هنالك الثوابت المتّفق عليها في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) إزاء سيل من المعطيات التاريخية القلقة التي تحتمل الخطأ والصواب... أفنحيل على الظني القلق، ونتجاوز اليقيني الثابت؟ أفنتشبث بالتاريخ ونتجاوز العقيدة والشريعة معاً؟ لاسيما إذا تذكرنا أن التاريخ ليس علماً منضبطاً Exact Science، وإنما هو علم احتمالي، أقصى ما يستطيعه هو مقاربة الحقائق لا مطابقتها... وإذا أضفنا إلى هذا أن التدوين في تاريخنا جاء متأخراً عن وقوع الحدث، منطوياً في الوقت نفسه على دور الأهواء

والتحزّبات والمصالح والخوف من السلطان والطائفية، الأمر الذي دفع العديد من المرويات إلى الانزلاق بعيداً عن مظانّ الصواب.

إن القرآن الكريم نفسه يحرّرنا مرتين من الارتباط الآسر بالتاريخ، في آيتين من سورة البقرة، وبالمفردات ذاتها: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]... ولكن الكثيرين منا لا يريدون أن ينتبهوا!!

ذلك أن الأخطاء التاريخية قدر لا بدّ منه... وكل أمة تخطئ مراراً عبر تاريخها الطويل، لا بل إن خلق العالم والإنسان انطوى منذ اللحظة الأولى على احتمالات الخطأ، تمييزاً له عن عالم الملائكة: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فليس المهم هو أن نخطئ أو لا نخطئ كأمة على مستوى التاريخ، ولكن المهم هو مساحة البعد الإنساني في تاريخ كل أمة... وهو في تاريخنا، وبكل المقاييس، أكثر المساحات عمقاً وتجذّراً واتساعاً، فهناك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ظاهرة الفتوحات كحركة تحريرية رفعت شعار الانطلاق إلى العالم، لإخراج الإنسان من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده...

هذه الحركة التي حملت قدرتها على الاستمرار لمدى قرون طويلة، وتمكنت من التجذّر في جلّ الأماكن التي وصلت إليها، لكي

تتفوق ـ فيما عدا حالات استثنائية لا يقاس عليها ـ على كل صيغ التآكل والانكماش والفناء، التي تعرّضت لها سائر محاولات الانتشار والسيطرة في التاريخ البشري.

وهناك ظاهرة التعامل مع «الآخر»، التي تمثل الوجه الآخر لمسألة الفتح، والتي تحتل أهمية بالغة في اللحظات الراهنة، فيما يسمى بالنظام العالمي الجديد، أو الموحد، وإشكالية حقوق الإنسان... إن (السير توماس أرنولد)، وهو باحث إنكليزي مسيحي عكف أربعين سنة على تأليف كتابه المعروف **«الدعوة إلى الإسلام»**، يتابع مفردات انتشار الإسلام وتعامله مع المغلوب على مدى ثلاثة عشر قرناً ونصف، مستمداً مادته من أدق المصادر والوثائق، وهو يقول في كتابه هذا أشياء كثيرة جداً فيما نحن بصدده، ولكننا نكتفي ـ في مقال كهذا ـ باستنتاج واحد قد يكون كفاء القضية كلها... إنه يقول: إن تاريخ الدعوة الإسلامية لم يسجّل منذ لحظاتها الأولى حتى زمن الانتهاء من تأليف الكتاب في الربع الأخير من القرن قبل الماضي، حالة واحدة أكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام!!

وهناك ما يمكن تسميته بالأممية الإسلامية التي شهدها هذا التاريخ. فلقد منحت كل الشعوب والجماعات التي انضوت تحت مظلة هذا الدين فرصتها في الحياة والتحقق والتعبير عن الذات... لقد كانت فرصة مفتوحة بمعنى الكلمة، سمحت حتى للعبيد والمماليك أن يواصلوا الصعود إلى فوق ويشكلوا دولاً، بل إنها

مضت لكي تمنح غير المسلمين في بلاد الإسلام حقهم المشروع في المجالين المدني والديني على السواء.

ثم إن تاريخنا الحضاري صاغ نمطاً من المجتمعات لم تشهده ولن تشهده سائر التجارب الاجتماعية الأخرى، ذلك أن تلك المجتمعات ظلت، حتى في لحظات الانكسارات السياسية والعسكرية والحضارية، أقل المجتمعات إدماناً للمخدرات، وتعاطياً للحشيش والأفيون وسائر المغيبات الأخرى، وشذوذاً جنسياً، وهروباً جماعياً، ودماراً أسرياً، وإقبالاً على الانتحار... وتبذلاً وتهتكاً واغتصاباً... وأقلها في معدلات الجريمة على مستويي النوع والكمّ، وفي رؤيتها التشاؤمية للحياة ومنظورها العبثي للوجود، والذي يصل أحياناً حد رفض كل الثوابت والمؤسسات الحضارية والروحية والاجتماعية والدينية في تاريخ الإنسان...

القرآن الكريم يريدنا أن نعمل في قلب العصر... في مواجهة التحديات... ولكننا نؤثر في معظم الأحيان الانسحاب إلى الماضي واجترار الأحزان، ونترك الساحات تخلو للخصوم والأعداء...

قد يكون هذا، من بين أسباب كثيرة أخرى، أحد عوامل تفوّق الغرب علينا عبر قرون انسحابنا الحضاري... وما هكذا أراد الإسلام أن نكون...



٨

العِلم الصحيح والعِلم الباطل...

ما دامت «**المادية الديالكتيكية**» التي تدّعي العلمية، تقوم ـ ابتداء ـ على الإلحاد وإنكار الوجود الإلهي المهيمن على الكون، والمفسّر لنشأته وصيرورته ومصيره، فهي إذن في المنظور الإسلامي، غير علمية... إذا كان العلم يعني الاقتراب من الحقيقة واتخاذ الأسباب والمناهج الموصلة إليها...

إن الدين، وفق هذا المنطوق، هو العلم الصحيح، وما دونه الباطل والضلال والخرافة، مهما ادعى أصحاب المقولة الكاذبة هذه، ورسموا، وشيّدوا من نظريات، وبنوا من صروح، وقدّموا من أرقام وتحليلات، توهم المتعاملين معها بالضخامة والجدية والعظمة والصدق والعلمية... إلىٰ آخره... لكنها ـ في حقيقة الأمر ـ ما دامت تقوم على الظن والهوى والتخمين والرؤية المحدودة، والحسابات النسبية القاصرة؛ لا تعدو أن تكون (بالونات) منفوخة، أو عمارات كارتونية، سرعان ما تعرّضها حركة التاريخ للانهيار... و﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

بعض الأدعياء يعرفون ما ستؤول دعاواهم الكاذبة هذه، فيسارعون إلى إجراء بعض الترميمات والإصلاحات على نظرياتهم، لكي تكون أكثر قدرة على مجابهة التحديات قبل أن يطويها النسيان... وبعضهم الآخر يتشبث بعلميتها التي ما تلبث أن تقودها إلى البوار...

وفي الحالتين فإن المصير الذي ينتظر الدعاوى الإلحادية هو السقوط النهائي... وها هي ذي سيّدتهم **«المادية الديالكتيكية»** تخرج من التاريخ، بسبب ما كانت تعانيه من شروخ، عجزت معها عن تقديم تفسير علمي دقيق ومحكم لهذا الكون الهائل في انضباطه وحركته واتساعه وتوافقه المدهش...

ولطالما قالها القرآن الكريم في العديد من آياته البيّنات، بأن العلم الوحيد الذي يفسّر الظاهرة الكونية، إنما هو الدين أو الوحي القادم من السماء، وأن ليس وراء ذلك إلّا الضلال المبني على الظنون والأهواء والميول والتحزّبات والرؤى النسبية المرتبطة بزمانها ومكانها، والتي لن تلبث الحركة التاريخية المتحررة من أسر الزمن والمكان أن تتجاوزها...

والحقّ أن كلمة (العلم) وردت في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على الدين نفسه الذي علّمه الله أنبياءه... على النواميس التي يسيّر بها الله ملكوته العظيم... على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله سبحانه في أم الكتاب، وكإشارة إلى القيم الدينية التي تنزّلت من السماء... ومن ثم يغدو (العلم) و(الدين) سواءً في لغة

القرآن... وها هي كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصّرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة، الممتدة، المتداخلة، كما أراد لها الله أن تكون، لا كما يريد لها أصحاب «الظن» من الوضعيين... ولنستمع إلى بعضٍ من كلمات الله:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: ٥٢]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج: ٣]، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الحج: ٥٤]، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠]، ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم

بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٨]، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]، ﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤ ـ ٥]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فاطر: ٢٨].

ولا يسعنا هنا استعراض جلّ ما ورد من آيات في هذا المجال، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة **«علم»** بتصريفاتها المختلفة وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين...

وهكذا يصبح **«الإيمان»** بالنسبة لكل إنسان سويّ عاقل، ولكل عالم، بمفرداته كافة، بدءاً بوحدانية الله، وانتهاء بتركيب الكون، الذي يقود بالضرورة إلى خالقه جلّ في علاه... على درجة من اليقين الذي يرفض أي شك أو مداخلة مضادة، مثل ١ + ١ = ٢!!

وكما قال أحدهم: أصبحت أتهم كل من ينتمي لغير الإيمان بالتخلف العقلي أو الغباء... ولم أعد أقدر على التعايش معه، أو مجاملته، أو قضاء ولو دقائق معدودات في صحبته!!



٩

الفلسفة والمقولة الساذجة...

لا أدري من أين جاءت هذه المقولة الساذجة؛ من أن الاشتغال بالفلسفة يقود إلى الكفر والإلحاد؟

إنها تزوير للحقيقة بزاوية مائة وثمانين درجة... ذلك أن الفلسفة التي تسعى لسبر غور الظواهر والعلائق والموجودات، وتأكيد الحقائق النهائية لا نفيها، إنما اتُّخذت وسيلة لتعزيز الإيمان، الذي هو سيّد هذه الحقائق وأعمقها غوراً.

يكفي أن نرجع إلى تراثنا الفلسفي الخصب لكي نتأكد من ذلك... يكفي أن نرجع إلى الكتاب القيّم لنديم الجسر (قصة الإيمان...)، لكي تتضح لنا الصورة: مسيرة طويلة من الاشتغال بالفلسفة كانت دائماً تقود إلى الله سبحانه.

تماماً كالعلم الذي أجمع كبار رجاله على أنه قادهم إلى الله سبحانه... ويكفي أن نرجع إلى كتاب **«الله يتجلى في عصر العلم»** الذي حرّره مونسما، وكتاب **«العلم يدعو للإيمان»** لكريسي موريسون، و **«حدود العلم»** لسوليفان، لكي يتأكد لنا ذلك.

كل الطرق تؤدي إلى الله... وطريق الفلسفة هو واحد من هذه الطرق العريضة التي تمارس مهمتها بكفاءة عالية.

والحق، أن الخلل ليس في الفلسفة، وليس ـ كذلك ـ في المشتغلين بها، وإنما في النفوس الملتوية التي يعصف بها الشك، ويقودها الشيطان إلى مواطن الضلال، هي التي تطلق مقولة ساذجة كهذه: إن الاشتغال بالفلسفة يقود إلى الكفر والإلحاد... وكنا نسمع منذ طفولتنا مقولة أخرى لا تقل فجاجة وسخفاً، وهي أن الإبحار في العلم يقود صاحبه إلى الغرق!!

المشكلة إذن في العقد النفسية التي تتحكم في رقاب البعض، فيرَوْن العالم والأشياء بمنظار مدخّن عليه، لا يمكّنهم من الاطلاع على حقائق الظواهر والأشياء.

إن الحقيقة الإيمانية هي سيدة الحقائق، وان كل المحاولات التي سعت لاختراقها باءت بالفشل الذريع، بينما هي ازدادت تأكيداً وثقلاً يوماً بعد يوم، سواء ذهبنا إليها من طريق العلم أم من طريق الفلسفة.

ولن يتسع المجال في عجالة كهذه لإيراد عشرات الشواهد ومئاتها على ما نقول، وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه متحدياً: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣ ـ ٤].

ولعل مقالاً، وربما مقالات موجزة أخرى، ستحكي للقارئ كيف دعا القرآن الكريم في مجمل سوره وآياته البيّنات إلى إعمال العقل في الظواهر والأشياء، للوصول إلى الله سبحانه...

وماذا تكون الفلسفة غير إعمال للعقل في الظواهر والأشياء؟!

١٠

القفزة المذهلة...

ما هي الرؤية الإسلامية لمسألة التطور الفكري، الذي تقول به، وتدعو إليه، جلّ المذاهب والمبادئ والنظريات الوضعية، فهي تدّعي أنها جاءت لكي تقود المجتمعات البشرية بخطوات واسعة إلى الأمام، وتتقدم بها صوب آفاق أبعد، وأكثر تقدماً ورُقيّاً.

فما الذي قدّمه الإسلام في هذا المجال؟

إنه ليس تطوراً هذا الذي صنعه الإسلام، وسنكون مخطئين إذا ظننّا بأن هذا الدين قدّم للبشرية تطوراً فكرياً... ذلك أنه كسر المنطق التقليدي بصدد الظاهرة، وحقّق قفزات مذهلة إلى الأمام، على المستويات الفكرية كافة... التصوّرات الاعتقادية، المعرفية، المنهجية، العلمية، والحضارية في نهاية المطاف.

لا ريب في هذا، لأنه ليس برنامجاً من وضع العبيد، ولا هو من وضع المذاهب التي يصنعها ويخطط لها العقل البشري... أو الإنسان... ولكنه «العقيدة»، البرنامج، المنهج، الرؤية الشاملة، التي جاءت من عند الله سبحانه، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض

ولا في السماء، والذي خلق وهو أدرى بخلقه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

برنامج شامل، متكامل، يجيء من «فوق» لكي يقود البشرية، ليس بخطوات رتيبة بحساب وحدات الزمن والمكان، ولكن بقفزات مذهلة صوب الآفاق...

إن الذي صنعه الإسلام، وصاغته هذه العقيدة على المستويات الفكرية كافة، أمرٌ معجز... وإن هذه الخطوات التي كسرت بها الأرقام القياسية للتطور، سواء فيما صنعته عبر الدعوة الإسلامية في عصر الرسالة، أو ستصنعه بعدها، ليس أمراً صعباً على التفسير، ذلك أننا بإزاء معادلة ذات طرفين، الطرف الأول فيها هو الإنسان المتلقّي، والطرف الثاني هو الله سبحانه الذي يعلم السرّ وأخفى، والذي وسع كل شيء علماً، والذي بعث إلى هذا الإنسان عبر أجياله المتعاقبة بالدِّين الذي يعرف كيف ينتشله من النقر الضيّقة التي يختنق فيها، ويصعد به وبإمكانياته الفكرية صوب الآفاق البعيدة لكي يحقّق الأعاجيب.

قد يسأل سائل: كيف يتم الوفاق بين دين هذا مستواه وهذه طموحاته الفكرية، وبين مجتمعات بشرية ربما تكون غير قادرة على استيعاب التجربة، وهضم القفزة، وتمثُّلها وتنفيذها في واقع الزمان والمكان؟

والجواب هو أن الله سبحانه منح الإنسان المؤمن قدرات «إضافية» تمكّنه من تحقيق القفزة، وتنفيذ المسارعة، والانطلاق

إلى الأهداف باختزال مدهش... فثمة التأكيدات المتواصلة في كتاب الله على تقوى الله في كل فعل وممارسة، وعلى تجاوز التقوى إلى الإحسان... أن تضع الله نصب عينيك وأنت تشتغل، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...

والقرآن الكريم يصف المؤمنين الجادّين بأنهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وهم ﴿لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]... وبذلك يدفعهم دفعاً إلى اختزال حيثيات الزمن والمكان، من أجل الوصول إلى الأهداف العليا، التي جاء هذا الدين لكي يدعوهم إليها، ويقودهم إليها في الوقت نفسه...

هذا هو الذي يحقق التلاؤم بين المجتمع المسلم وبين الآفاق البعيدة التي دعا إليها الإسلام.

وفي القرآن الكريم مفتاحان زمنيان، كأنما يريد أن يقول بأن الزمن سيكون دائماً في صالح المجتمعات البشرية، ذلك أن تراكم الخبرات عبر الصيرورة الزمنية يمنح المجتمعات قدرة أكبر على هضم التجربة الفكرية الإسلامية، وعلماً بتنفيذها في واقع الحياة، ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: ٣٩] ويقول في الآية الأخرى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهكذا فإن تلك القفزات الكبيرة التي جاء بها هذا الدين ليست أبداً من قبيل (تعجيز) المجتمعات البشرية، وانما هي قابلة للتحقق، ولقد تحققت بالفعل في أرض الواقع، بما منحه الإسلام

للإنسان من قدرات وامكانيات تعينه على تحقيق اللحاق، وتنفيذ المحاولة، وتحويل القفزات التطورية تلك من مجرد مبادئ ووجهات نظر إلى ممارسات تنفيذ وهضم وتحقّق في واقع الحياة.

وأخيراً، فإننا لو حاولنا أن نجري عرضاً مقارناً بالنتائج التي تمخضت عن هذه النقلات، أو القفزات التي قدّمها الإسلام، بتلك التي تمخضت عما فعلته كل المذاهب الوضعية والأديان المحرفة، ابتداء من عصور اليونان، فمعطيات عصر التنوير، والنهضة الأوربية، فالمذاهب المثالية والاشتراكيات الطوباوية والمادية التاريخية الماركسية والقوميات الشوفينية والوجودية... إلى آخره... فإننا واجدون فرقاً شاسعاً بين الفكر الإسلامي وبين هذه الأفكار من حيث الكمية أو النوعية... على السواء...



١١

الكتاب... هو المعلّم الأوّل...

التكوين الثقافي للمسلم يعدّ ضرورة من ضرورات التحامه بالعصر، وإدراكه لمطالبه وتحدّياته، وقدرته على اعتماد صيغ أكثر تأثيراً في الآخرين.

ولا ننسى الانفجار المعرفي عبر القرنين الأخيرين، فيما يسمى بـ «المعلوماتية»، وتزايد الحضور الإعلامي، واللذين جاءا متزامنين مع القفزة التقنية المدهشة في مجالات الحاسوب والستيلايت والإنترنت.

هذه كلّها تحتم على المسلم أن يلزم نفسه بمتابعة المستجدات، وتخصيص أوقات محددة لتنمية خزينه الثقافي، ليس في رمضان فقط، وإنما على مدار السنة كلها.

إلّا أن شهر رمضان المبارك يملك خصوصياته، فهو شهر الطاعة والتمحّض، فضلاً عن أن الله سبحانه بارك في أوقاته، فيما يمنح المسلم فرصة أوسع للتفرّغ للهموم العامة، وفي مقدمتها النشاط الثقافي.

في سياق المطالعة، إذا أريد لها أن تكون قراءة منتجة وليست استهلاكية، يفضل ملاحظة المسائل التالية:

أولاً: أن يتعامل القارئ مع الكتاب كما لو أنه يدرسه لكي يمتحن فيه، وهذا لن يتّم إلّا بالإمساك بالقلم والتأشير على المقاطع والأفكار الأكثر أهمية، أو تلك التي تثير تساؤلات شتى، أو يصعب التسليم بها. وهنا يتذكر المرء مقولة (العقاد) المعروفة من أن قراءة كتاب واحد خمس مرات أفضل من قراءة خمسة كتب.

ثانياً: أن يملك القارئ رؤية جيّدة في انتقاء الكتاب الأكثر أهمية، لكيلا يضيّع وقته فيما لا يضيف شيئاً معرفياً ذا قيمة... وهذا لا يتحقق الّا باستشارة الآخرين، وأخذ رأيهم في منظومة الكتب الأكثر أولوية، لاسيما ونحن في زمن تتدفق عبره الإصدارات الجديدة كالسيل، فيما يجعل الحليم حيراناً...

والأمر نفسه بالنسبة للبرامج التلفازية، التي انفجرت بانتشار الفضائيات، وتعدّد القنوات، وكثرة المعروض... فلا بّد ها هنا من استشارة ذوي الخبرة لتحديد البرامج الأكثر جدوى في تنمية ثقافة المسلم، وإلّا ذهب وقته هدراً.

ليس بمقدور المرء أن يضع قائمة بالكتب والبرامج التي يفضل قراءتها أو متابعتها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جلّه، فمن خلال خبرة المدرّس الشخصية في مجال الكتاب يجد من

الضروري بالنسبة للمثقف المسلم قراءة الكتب التي يراها جديرة بالقراءة... وهكذا...

ثالثاً: ألّا يجمد القارئ على المطالعة في حقل واحد من المعارف، بل أن ينوّع قراءاته، ما وسعه الجهد، في شتى الصنوف المعرفية، لأن هذا التنويع يمنحه فضاءً معرفياً واسعاً، وخصباً عقلياً، وقوة خيال، وقدرات فائقة على التحليل والاستنتاج، بل ـ وحتى ـ لغة محكمة في نقل خطابه للآخرين... وهي مسائل ذات أهمية بالغة في مجال الكتابة والإنجاز الفكري أو الأدبي.

ولطالما رأينا الكثيرين من طلبة التاريخ الذين لا يقرؤون إلّا الكتب التاريخية؛ يفتقدون هذه الميزات، فتتسطح رؤيتهم للظواهر والأشياء، وتتيبّس لغتهم، ويفتقد أداؤهم العمق المطلوب... وكذلك الحال مع طلبة العلوم الإسلامية الذين لا يغادرون زنزانات تخصّصهم ولا يقرؤون الّا في دائرة المعرفة الإسلامية.

وفي الحالتين فإن توسيع آفاق المطالعة إلى دائرة المعطيات الأدبية ـ على سبيل المثال ـ يمكن أن تسدي لهؤلاء الكثير من العوامل، التي تعينهم على بناء مشاريعهم الفكرية بلغة أكثر سلامة وشفافية، وبخيال أشد نفاذاً في تعامله مع الظواهر والأشياء، وبقدرة على المقارنة والتحليل تمنح أعمالهم قيمتها الحقيقية.

وباختصار شديد ـ فيما يسمح به مقال موجز كهذا ـ فإن التكوين الثقافي للمسلم لن يتحقق، في حدوده المعقولة، ما لم يكن «**الكتاب**» أو «**المطالعة الخارجية**» هي المعلّم الأساس... ذلك

أن عشرين سنة من الدراسة الجامعية الملتصقة بالمقررات المنهجية، وعشرين سنة أخرى من الجلوس وراء الشاشة الصغيرة، لن تخرّج باحثاً أو مفكراً أو عالماً أو أديباً أو مبدعاً... وأن الذي يخرّج هؤلاء جميعاً هو **«الكتاب»**.



١٢

الكلمة الطيبة صدقة...

ما أجمل تعاليمك يا رسول الله... إنها تريد أن تجعل الحياة الاجتماعية مترعة بالألفة والمحبة والانسجام... وأن تكون العلاقات بين الناس خالية من شوائب الأذى والكراهية والجفاء والبغضاء.

ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى هذه التعاليم الوضيئة... أن تسود المودّة بين المواطنين، وألّا يُسمِع بعضهم بعضاً إلّا الكلمات العذبة الودودة، التي تزيد الروابط الاجتماعية قوة، والتي تمنح الحياة اليومية طعماً عذباً... في البيت... في المدرسة... في المسجد... في السوق... في الشارع... في المؤسسة... وفي كل مكان.

ولنتذكر أن نقطة الارتكاز في بناء أي مجتمع متحضر على مدى التاريخ؛ إنما هي منظومة القيم الخلقية والسلوكية، وأن تنميتها والحفاظ عليها هي التي تجعل المجتمعات تمضي قدماً في سلّم الحضارة، ولهذا قال الشاعر أحمد شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والكلمة الطيبة هي واحدة من هذه القيم، التي تلعب دوراً

كبيراً في بناء المجتمع، وتماسكه، وتمكينه بالتالي من المضيّ في طريق التقدم.

ومن منا لم يتلقَّ يوماً كلمة سامّة، أو عبارة جارحة، تصدر عن أناس لم يتحصنوا بالأخلاق، فتكون كالسكاكين التي تدمي وتمزق الأواصر والعلاقات، وتستأصل المحبة من قلوب الناس؟

ومن منا ـ كذلك ـ لم يتلقّ من هذا المواطن أو ذاك، كلمة طيبة تنزل على قلبه كالماء الزلال، وتفجر فيه ينابيع المحبة للآخرين، والرغبة الجادة في التقرّب إليهم والتعاون معهم لتحقيق الأهداف العامة التي ينشدها الجميع؟

وللأسف الشديد، فإن العائدين من ديار الغرب طالما تحدثوا عن (الكلمة الطيبة) المعلّقة على ألسنة القوم هناك، وأجدر بنا، نحن أحفاد الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) أن نتخلّق بذلك... ليس هذا فحسب، بل إن البسمة التي نقابل بها وجوه الآخرين، كادت أن تغيب من حياتنا هي الأخرى، رغم أن رسولنا عليه الصلاة والسلام أمرنا بها في حديثه الشريف: **«تبسّمك في وجه أخيك صدقة»**.

ولعلّنا نكون أكثر جدّية في التعامل مع هذه التعاليم من أجل حياة أكثر عذوبة وانسجاماً وجمالاً...

أن تقول لأخيك الذي أخطأت معه خطأً بسيطاً: (آسف)... **فكأنك تزيل من نفسه ـ لحظتها ـ ما قد يسبب له الأذى، الذي سرعان ما ينقلب حقداً وكراهية وبغضاء، قد تفترس جملته**

العصبية، وتكون أنت ـ من جهتك ـ قد خسرته، وربما إلى الأبد... هذا كلّه يمكن ألّا يحدث بإعمال الكلمة الطيبة في علاقاتنا الاجتماعية.

أن تبتسم في وجه أخيك ـ إذا أخطأ معك ـ فتزيل من نفسه دوافع الخطأ، وتدفعه دفعاً في الاتجاه المقابل تماماً... إلى حالة من المحبة والأريحية والاعتذار، فتعود العلاقة المتأزمة بين الطرفين إلى وضعها الطبيعي تماماً من الألفة والتجاوب والانسجام.

ثمة أبعاد نفسية واجتماعية تترتب دائماً على مواقفنا من بعضنا البعض، ولطالما تضخمت «الحالة» الخاطئة تضخماً سرطانياً يقود إلى ما لا تحمد عقباه... ولطالما تحولت إلى «جريمة» قد تقود حتى إلى القتل... ناهيك عما تسببه للطرفين من معاناة نفسية مترعة بالحقد والرغبة المكبوتة في الانتقام.

هذا كله ما كان له أن يحدث لو عرفنا كيف نشغّل **«الكلمة الطيبة»** و **«البسمة الحانية»** في حياتنا اليومية، وعلاقاتنا الاجتماعية... ولنتصوّر حياة تخلو من هاتين، وتستبدل بهما الكلمة الجارحة والنظرة الحاقدة، ماذا يمكن أن تقطع من أواصر، وتقود من سوء؟!.

والرسول المعلّم (عليه أفضل الصلاة والسلام)، من أجل أن يبعدنا عن هذا المصير الكالح، ويحبّبنا بنقيضه الوضيء، يعلن عن الأجر الكبير لكل من يطلق لسانه بالكلمة الطيبة، وملامحه

بالبشاشة والمحبة، ويعتبر ذلك «**صدقة**» تدخل في رصيد المؤمن رقماً إيجابياً سيجده يوم الحساب...

وصدق رسول الله (ﷺ)، الذي جعل الكلمة الطيبة والبسمة الوضيئة تساوي ما ينفقه المسلم على الفقراء والمحتاجين من كدحه الخاص... فإن هذه جميعاً ـ والحق يقال ـ تعمل عملها في الحياة الاجتماعية والنفسية صمامات أمان، تحميها من القطيعة والكراهية والحقد والبغضاء...



١٣

المجتمع السعيد...

هكذا يريده رسول الله (ﷺ) مجتمعاً آمناً متضامناً متوادّاً متحابّاً وسعيداً... إنه يخاطبنا بحسم ووضوح فيما رواه أنس: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»... لا يؤمن... هكذا، وإلا فإن إيمانه مدسوس ومشكوك فيه. ولنتخيل لو أن جميع أفراد المجتمع أحبوا لإخوانهم ما يحبونه لأنفسهم كيف سيكون الحال؟...

إننا لا نحب لأنفسنا إلّا الخير، بكل ما ينطوي عليه من قيم ومفردات، وفي سياقات الحياة كافة، فلو أننا أردنا هذا للآخرين، لو أننا لم نقف عند حافات النيّات، ومضينا قدماً لتفعيل النية وتحويلها إلى أمر واقع في حياة الناس... فإن لنا أن نتصوّر كيف سيكون الحال في مجتمع تمّحي فيه الأثرة ويسود الإيثار...

إن مساحاتٍ وبقعاً واسعة من التعاسة والشقاء في نسيج أي مجتمع، منبعها إذا أردنا الحق، أن كلّاً منا «يريدها» لنفسه لا للآخرين... الأنا تصبح هي الحاكم والموجه لسلوك الناس وصلات بعضهم ببعض، فلو أننا قدرنا على كسر حدة الأنا هذه، وانفتحنا على الآخرين، وأحببنا أن يحصلوا على ما نحصل عليه،

ويصلوا إلى ما نصل إليه... فإن «الإيثار» سيكون هو الحاكم والموّجه لمفردات السلوك، وسيقود هذا إلى حياة اجتماعية مترعة بالتوافق والتكافل والتوحد والانسجام...

ويمضي الرسول المعلم والأب الكبير مؤكداً المعنى نفسه في حديث آخر، جاعلاً «**البيعة**» التي هي عقد الانتماء لهذا الدين وأساسه، منطوية بالضرورة على (**النصح**) لكل مسلم... أي على أن يضع أحدنا، وقد اختار أن يصبح مسلماً، كل خبراته وتجاربه الإيجابية بين يدي الآخرين، ليس فقط لكي يدلّهم على الطريق، وإنما من أجل إعانتهم على التحقق بأكبر قدر من الخبرات الطيبة التي نملكها... وبالتأكيد فإن تبادلاً كهذا تحت مظلة (**التناصح**) سيقود إلى تكوين مجتمع ليس كالمجتمعات... مجتمع تسوده الألفة والمحبة والعطاء المتبادل... عن جرير بن عبد الله البجلي قال: (إني أتيت رسول الله (ﷺ) فقلت: أبايعك على الإسلام، فشرط عليّ النصح لكل مسلم فبايعته على هذا).

إنه (ﷺ) يسعى باشتراط كهذا إلى تحقيق الأمن الاجتماعي بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى، فحين يصبح النصح أمراً ملزماً... جزءاً من بيعة، فإنه سيحقق هدفين في وقت واحد: ألّا يفترس أحدنا حقوق الآخرين... وأن يعينهم في الوقت نفسه على التحقق بها، فيسدّ بذلك كل بوابات السوء التي يمكن أن تنفتح على المجتمع بالشرّ والأذى وتضييق الخناق على سلمه وتوافقه...

وفي المقابل، فإنه (ﷺ) يحذّر من الظلم، لأنه أحطُّ دركات

الأثرة والأنانية... أن نبني مكاسبنا على حساب الآخرين، وأن نسعد أنفسنا بظلم الآخرين...

إن ظلم الآخر هو النقيض الكامل (إذا صح التعبير) لمحبة الآخر... إنه الأخذ بالحق والباطل بينما المحبة هي البذل والعطاء... ولنا أن نتوقع كيف سيقود الظلم إلى تفكيك عرى المجتمع وتمزيق نسيجه وسرقة أمنه وانسجامه؟...

وللتنفير من الظلم، وتحقيره، ونفيه من العلاقات الاجتماعية واستئصال شأفته؛ يلجأ (ﷺ) إلى التخييل الحسّي أو التجسيد، ليس هذا فحسب، بل إنه يستحضر معنا ما سيؤول إليه يوم الحساب... عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي (ﷺ) قال: **«الظلم ظلمات يوم القيامة»**. وعن سعيد بن زيد، قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: **«من ظلم من الأرض شيئاً طُوِّقه من سبع أرضين»**... إنها الممارسة المرذولة التي تنقلب على أصحابها ظلمات يوم القيامة وتطوِّقهم من جهاتهم السبع!

وهو (ﷺ) يلجأ مرة أخرى إلى التخييل الحسّي أو التجسيد في سعيه لتقديم الصورة الوضيئة للمجتمع المسلم، المتحابّ المتوادّ، المتضامن المتكافل، الآمن السعيد... عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»** ثم شبك بين أصابعه. وهذا هو أقصى ما يطمح إليه، ويتمناه، مجتمع من المجتمعات.



١٤

المسابقة الكبرى...

﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

هذه واحدة من المعادلات القرآنية، التي تمنح المسلم المزيد من الاطمئنان إلى المصير، وبالتالي من اجتياز رحلة الحياة الدنيا بعيداً عن المخاوف والأحزان... من التحرّر منها بعبارة أدق... ولكن الفوز العظيم هذا لن يتم بدون ثمن كبير يكافئه!

لقد كُتب على المسلم الذي اختار دخول المسابقة الكبرى أن يكون عدّاءً من طراز أوّل... أن يسارع في الخيرات وأن يسبق إليها...

هذا هو قدرنا... أن يساهم كل واحد منا، وبما يسّره الله له، في صناعة الحياة الإسلامية، حلقة من حلقاتها، أو جزئية من جزئياتها... أن يغذّي بعطائه رافداً من روافدها، التي قد تبدو للوهلة الأولى صغيرة منحسرة، ولكنها عندما تلتقي وتتجمع، وتصبُّ جميعاً في بحر الدعوة الكبير، يمكن أن تغيّر الخرائط والمقدّرات وتعد بالكثير...

وليس مهماً، بعد هذا، أن نقطف الثمار هنا في الحياة الدنيا،

أو هناك في الحياة الأخرى... بل إنها هناك أولى ببذل المزيد من الجهد لأنها تقترن بالخلود، بينما هي هنا سريعة منصرمة، كانعدام الحياة الدنيا نفسها!!

إن القرآن الكريم يخاطب الرسول نفسه (ﷺ) بهذا المعنى كي لا يستعجل القطاف، وكي لا يجعل من الجزاء في الحياة الدنيا خاتمة المطاف، فيصاب وأصحابه بالإحباط الذي هو السكين التي تذبح النشاط الدعوي من الوريد إلى الوريد: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

إننا بانتمائنا إلى خيمة الله، وإمساكنا بحبله المتين، قبالة كل خيام الآخرين الممزقة، وحبالهم المقطوعة... يجب أن نكون أسعد خلق الله، وأكثرهم فرحاً وتوحّداً واطمئناناً وائتماناً ذاتياً...

فما الذي يخيفنا أو يحزننا ونحن نجتاز رحلة موقوتة لا تتجاوز ـ بتعبير رسول الله (ﷺ) ـ الجلوس للحظات تحت ظل شجرة في الصحراء القائظة، ثم تركها والمضيّ بعيداً...

رحلة يصفها القرآن الكريم بحفل تعارف، لا يكاد أحدنا خلالها يتعرف جيداً على أصحابه، ثم ما يلبث أن يغيب عنهم... فيطويه ويطويهم النسيان!! ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

ما الذي يخيفنا أو يحزننا ونحن موعودون، إن عرفنا كيف نتعامل مع طرفي المعادلة، بالفوز العظيم؟!

بعد هذا كلّه، ألا يحق لنا أن نرفع تهنئتنا من الأعماق لكل الذين قدموا «شيئاً» من أجل صناعة الحياة الإسلامية كما أراد لها الله سبحانه ورسوله (ﷺ) أن تكون؟

لكل الذين قدموا علاجاً لمريض كي يشفى، أو ديناراً لفقير كي يشبع، أو بنوا وشيّدوا ما يعين المرضى والجائعين على اجتياز أحزانهم ومتاعبهم؟

إن الطريق مفتوح... والأبواب مشرعة على مصاريعها لكل أولئك الذين يطمحون بالفوز العظيم... والذين ينتظرون الحصول على الجائزة الكبرى يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣].



١٥

المعاهد الإسلامية والفقه الحضاري...

يلاحظ المرء، عبر متابعته لمناهج الجامعات والكليات والمعاهد الإسلامية، قلّة اهتمام هذه المناهج بالدراسات التاريخية والحضارية، رغم أهميتها البالغة في الصراع الحضاري الراهن، وفي الإعانة على صياغة المشروع الحضاري البديل.

إنها تولي اهتمامها بالدرجة الأولى للعلوم الشرعية، ويجيء هذا على حساب العلوم الإنسانية، وبخاصة التاريخ والحضارة والاجتماع، والتي لا بدّ منها لفهم مطالب العصر، وجعل العلوم الشرعية نفسها تتحرك في بيئتها من الزمان والمكان والشروط الحضارية.

في زيارتي الأخيرة للسودان الشقيق، لمست هذا بوضوح في جامعتَيْ أم درمان والقرآن الكريم والعلوم الإسلامية، ولعلّ الظاهرة نفسها تنسحب على الكثير من الجامعات والمعاهد الإسلامية.

ولحسن الحظ، فإن المسؤولين عن الجامعتين السودانيتين المذكورتين وبخاصة ثانيتهما، أبدَوْا استعداداً مؤكداً للاهتمام

بالحلقة التاريخية والحضارية، وطلبوا صياغة منهج ملائم لكلية معنية بهذه الدراسات، تعتزم الإدارة إنشاءها في وقت لاحق إن شاء الله.

مهما يكن من أمر، فإنه قد آن الأوان لإبداء اهتمام متزايد في سائر المؤسسات الأكاديمية الإسلامية، من أجل الاستفادة من الخبرة التاريخية والفقه الحضاري، للتحقّق بجملة فوائد معرفية ضرورية جداً لطلبة الدراسات الشرعية والإسلامية عموماً.

إن الحلقة الأكثر ضعفاً اليوم، في الساحة الإسلامية، قبالة حلقتَيْ الفقه الشرعي والفقه الدعوي، إنما هي حلقة الفقه الحضاري المرتبطة بالدراسات التاريخية أشدّ الارتباط. وهي حلقة ضرورية لإيجاد جسر إلى العالم، وإيصال الخطاب الشرعي بآليات الدعوة إلى سمع الإنسان وعقله ووجدانه.

ومما يرتبط بهذا، ذلك الغموض الملحوظ وعدم التحديد بصدد المصطلح الحضاري؟ فإن المثقف المسلم، والمتخصص في العلوم الشرعية على السواء، لا يكاد يفقه شيئاً عن مفردات كالحضارة والمدنية والعمران والثقافة والمعرفة والنظم والفكر والعلوم والآداب والفنون... إلى آخره...

ويزيد الأمر إرباكاً، ذلك الخطأ المنهجي، الذي يهيمن على طرائق تدريس الحضارة الإسلامية في معظم معاهد وجامعات البلدان الإسلامية، حيث تفكّك هذه الحضارة إلى سياقات منفصلة كالنظم، والفكر، والعلوم، والنشاط الاقتصادي أو العمراني... إلى

آخره... تعطى كل منها في سنة أو سنتين، بحيث إن الطالب يتخرّج وهو لا يكاد يفقه شيئاً عن الملامح الأساسية للحضارة الإسلامية، وشروط تشكّلها ونموّها، وعوامل انكماشها وجمودها، وانهيارها في نهاية الأمر. كما أنه، للسبب نفسه، لا يكاد يعرف أن حضارة الإسلام، من بين سائر الحضارات التي شهدها التاريخ البشري، تملك قدرتها على التجدّد والانبعاث، لأن شروط تشكُّلها تظل قائمة بكل مفرداتها وتأسيساتها في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ).

وللأسف، فإن المفكرين والدارسين القادمين من خارج دائرة الإسلام كانوا أكثر قدرة، بسبب من رؤيتهم المنهجية الشمولية، على متابعة خصائص الحضارة الإسلامية وصيرورتها، والتأشير على عناصر تميّزها وتفوّقها، وهم الذين أكدوا على أن بصمات الإسلام ونسغه يمضيان لكي يطبعا كل خلية من خلايا هذه الحضارة، ويشكّلا كل صغيرة أو كبيرة في معمارها الواسع المتشعّب.

إن تحدّيات الحضارة الغربية المعاصرة، ومطالب المشروع الحضاري البديل يقتضيان ـ إذا استعملنا عبارة كارودي ـ إجابة كونية تكون بمستوى المشكلة، ولن يكون ذلك دون المزيد من الإيغال في حلقة الفقه الحضاري المتجذر في التاريخ والعقيدة على السواء.

إن مبدأ التوحيد المحرّر الذي هو نسغ حضارتنا، والقاسم المشترك لمفرداتها كافة، يقف قبالة كل الصنميات والطاغوتيات،

والحتميات التاريخية والمادية، التي حكمت العقل والوجدان الغربي طويلاً، والذي يجد نفسه اللحظة مسوقاً لأن يبحث عن الجواب... عن صيغة للتحرّر من الضغوط والخروج من المأزق... وأيضاً للتحقّق بالتوازن الضائع في حياته بين المادة والروح، والذي لن يعثر عليه إلّا في إطار هذا الدين.

إن الفقه الحضاري يستدعي دراسة علمية منهجية متأنية لتاريخنا الحضاري، من أجل استمداد مؤشرات العمل في الحاضر والمستقبل، وهي كما هو واضح، ليست مسألة ترفيه، ولا حتى أكاديمية صرفة، وإنما هي مسألة «حيوية» بكل معنى الكلمة، لأن حلقة كهذه معنية باستخلاص البدائل، التي يمكن أن نتقدم بها إلى العالم في سياق مشروع حضاري، يشارك في صياغة المستقبل والتخطيط للمصير البشري.

فضلاً عن أن فقهاً كهذا يمنحنا صورة عن مصداقية تحوّل الشريعة وتأسيساتها التصوّرية والاعتقادية إلى واقع تاريخي متحقّق في الزمن والمكان أي في التاريخ، كما أن فقهاً كهذا سيعرّفنا على عوامل الانهيار الحضاري، التي ساقتنا إلى المواقع المتخلفة في خارطة العالم، عندما بدأ أجدادنا يقلّدون بدلاً من أن يبدعوا، وعندما هيمنت الروح الإرجائية التي فصلت الإيمان عن مقتضياته العملية، وعندما ساد الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، وعندما لم تلتفت القيادات الإسلامية المتأخرة كالمماليك والعثمانيين إلى مغزى إلحاح القرآن الكريم على التحقّق بالقوة،

ولم تولّ الاهتمام الكافي لتحدّيات التكنولوجيا، وبخاصة تكنولوجيا السلاح... إلى آخره...

إن معاهدنا وجامعاتنا الإسلامية لهي المنوطة بالتأصيل الإسلامي للدراسات الحضارية، وبصياغة منهج ملائم للتحقق بذلك، قبالة محاولات الدارسين من خارج دائرة الإسلام، سواء كانوا مستشرقين أو نصارى أو ماديين، وبالإفادة منها في الوقت نفسه... وإن هذا لن يتأتى إلّا بإعطاء المساحة المناسبة للدراسات التاريخية والحضارية في هذه المعاهد والجامعات.

ومن أجل تجاوز الأخطاء التقليدية في منهج التعامل التفكيكي أو الميكانيكي مع الحضارة الإسلامية في الجامعات والمعاهد المختلفة؛ يمكن اعتماد المنهج التالي، وهو بالتأكيد قابل للتعديل والتبديل والإضافة في ضوء الممارسة العملية:

السنة الأولى: أصول الحضارة الإسلامية (المنهج الإسلامي للفعل الحضاري).

السنة الثانية: نموّ الحضارة الإسلامية (المعطيات والوظائف والخصائص).

السنة الثالثة: تدهور الحضارة الإسلامية (العوامل الداخلية والخارجية).

السنة الرابعة: مستقبل الحضارة الإسلامية (تحليل للمشروع الحضاري البديل، وتحديات التكنولوجيا، ومدى الإفادة من خبرات التراث الحضاري، وأبعاد المساهمة المعرفية في مصير العالم).

ويمكن، بعد إقرار المنهج بصيغته التأسيسية هذه، إرفاد كل سياق بالمفردات التفصيلية، لكي تكون بمثابة دليل عمل لتأليف الكتب المنهجية والبحوث التي يتعامل معها ويسترشد بها الطالب الجامعي.



١٦

الملحدون في ديارنا...

الملحدون في ديارنا يتغابَوْن مرتين!!

بعدم إدراكهم، أو محاولة إدراكهم للحقيقة الكونية... ومرة بعدم حمايتهم لمصالحهم!!

فها هي ذي الحقيقة الكونية قبالتهم تماماً... تشهد بإحكام بنائها، وانضباطها المدهش، ودقة صنعها، وتسييرها المعجز لملايين السنين، دون أن يصيبها الخلل... بأن وراء هذا كلّه إله واحد، صانع، مدبر، قدير، مهيمن، لا تأخذه سنة ولا نوم...

وتتهاوى إزاء هذه الحقيقة كل الاحتمالات والفلسفات والمبادئ والدعاوى، التي رفضت الوجود الإلهي الحاكم على الكون، ثم دخلت في جملة متاهات، تصل أحياناً حدّ السخف الفج الذي لا يقبله عقل ولا منطق ولا علم جادّ...

ولعل الماديّة الديالكتيكية التي قالت بها الماركسية يوماً تقدم وسيلة إيضاح لهذا... فهي تقول بأن التطوّر الكوني إنما يقوم في أساسه على تنامي الكميات، التي سرعان ما تتحول (ولا يدري

المرء من الذي يقوم بتحويلها) إلى متغيّرات نوعية تمضي بالبنية الكونية إلى أهدافها!!

ويتذكر المرء، إزاء هذا الذي يسميه (سوليفان) في (حدود العلم): «السخف الطائش» ما سبق وأن قاله المفكر الإنكليزي (الكساندر غري) في تعليقه على هذا التغيّر الفجائي من الكمّ إلى النوع، من أننا لو جئنا بجذع شجرة وتركناه في الغابة بانتظار أن يتحول نوعياً إلى منضدة ذات قوائم أربعة، ومجرّات لتخزين الأوراق، وسطح أملس صالح للكتابة، ألف سنة، بل آلاف السنين؛ فإننا سوف لا نجد الجذع قد حقق ـ بذاته ودون تدخل من أحد ـ هذه القفزة النوعية لكي يصبح منضدة صالحة للكتابة... فكيف ـ إذن ـ يبرّر الديالكتيكيون كل المعطيات الكونية المحكمة، والماضية إلى أهدافها الغائية المرسومة بذلك القدر من الضبط والدقة، كما يبرّرون تحوّل جذع الشجرة إلى منضدة صالحة للكتابة؟!

ويتغابى الملحدون في ديارنا مرة أخرى بعدم حمايتهم لمصالحهم!!

ذلك أنه ما من عقيدة أو دين أو مذهب في العالم تتحقق في شبكة تعاليمه مصلحة الإنسان كهذا الدين... والحديث في هذه المسألة يطول، ويتطلب مئات الصفحات وألوفها لتأكيد ذلك التوافق المدهش في بنية الإسلام، بينه وبين مصلحة الإنسان... ولكننا سنقف في هذا المقال الموجز لحظات عند دور الإيمان

الإسلامي في حماية ظهر الإنسان، وكم أن الذين يرفضون هذا الدين إنما يتخلون عن حماية مصالحهم النفسية والاجتماعية والاقتصادية...

ذلك أن هذا الدين هو الوحيد الذي يعلن الحرب على (الغيبة)، ويعتبر الطعن على المنتمين إليه، من هذا الطرف أو ذاك، كأكل لحم الأخ، الميّت، تنديداً وتنفيراً... من هذه الممارسة السافلة التي استشرت بين الناس، وأصبحت قدراً لا بدّ من ممارسته في أي مجلس أو مناسبة أو اجتماع: أن يطعنوا ظهور أولئك الذين كانوا إلى جوارهم قبل لحظات، ويشنّعوا عليهم، وقد يتهمونهم بأبشع المواصفات، ويرمونهم بأقبح الأفعال...

إن بمقدور أي واحد منا أن يتصوّر مدى الغلّ والحقد والأذى الذي سيتناوشه ضد أولئك الذين اغتابوه، بمجرد أن يعلم ذلك، وكيف أن هذا سيقود إلى واحدة من أشد صيغ التمزق الاجتماعي ضراوة وعنفاً...

ها هو هذا الدين يتقدم لحماية الإنسان الفرد والجماعة المسلمة من مصير كالح كهذا، فيعلن حربه على الظاهرة، ويدعو إلى استئصالها من جيوب حياتنا الاجتماعية، من أجل أن تغدو هذه الحياة جميلة وضيئة، متحابة منسجمة متجانسة، كما أراد لها الله ورسوله أن تكون...

وهو الدين الوحيد الذي يحمي شرف الإنسان من الاختراق والعدوان، بشبكة من التشريعات والعقوبات التي تجعل الإنسان

يغادر داره وهو مطمئن أشد الاطمئنان إلى إخلاص زوجته له، وإلى أنها لا تخونه أو تخدعه، وإلى سلامة انتماء الأبناء والذراري إلى صلب آبائهم الحقيقيين!!

على العكس تماماً مما تشهده الساحات الغربية من خيانة الزوج لزوجته، وهذه لزوجها، واختراق شرف العائلة، والتلبيس على الذريّة...

ولقد أتيح لي أن أقرأ عبر الأشهر الأخيرة العديد من الكتب عن كبار أدباء وفنّاني ومفكري الغرب، فلم أكد أجد واحداً منهم لم يتخذ عشيقة، بل عشيقات من وراء زوجته، بل على مرأى ومسمع منها، وهذه ـ ربما ـ من وراء زوجها... بل على مرأى ومسمع منه! كأن الأمر مسألة طبيعية في تراثهم وتقاليدهم... ويجيء الأبناء وهم لا يدرون ـ تحديداً ـ من هم الآباء؟.. وتختلط الأمور، ويدخل الحابل بالنابل...

الملحدون في ديارنا يتغابَوْن مرتين...

مرة بعدم إدراكهم للحقيقة الكونية... ومرة بعدم حمايتهم لشرفهم ومصالحهم... وبين الاثنتين، عشرات من المواقف والتصوّرات، التي تميل بهم عن جادة الصواب... وجادة الصواب هو هذا الدين: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

١٧

أمريكا...
رائدة الأعمال القذرة في العالم...

عندما كنا صغاراً، في منتصف خمسينيات القرن الماضي، كان ابن عم لنا يكبرنا عمراً، يبدي إعجابه الدائم بالولايات المتحدة الأمريكية، ويرى فيها النموذج الذي يحتذى في الدفاع عن الحرية ونشر الديمقراطية والتقدم في العالم. وكان يقول: من الذي قضى على النازية الألمانية والفاشية الإيطالية، بكل جبروتهما وعدوانيتهما سوى أمريكا؟ ومن الذي يقف في وجه الزحف الشيوعي الأحمر الذي يسعى لافتراس الحرية في العالم، غير أمريكا؟

وكانت شريحة واسعة من الشباب، ممن لم يحصّنهم الوعي الديني أو السياسي، يرون رأيه، ويتخذون من الولايات المتحدة الأمريكية، وتمثال الحرية الذي يحرس شواطئها، المثل الأعلى...

وجاء موقف الرئيس الأمريكي آيزنهاور عام (١٩٥٦م) ضد العدوان الثلاثي على مصر، وإرغامه دول هذا العدوان على الانسحاب، مقابل جملة من التنازلات المصرية لإسرائيل بما فيها

فتح خليج العقبة ومضائقه أمام السفن الإسرائيلية، وتمكينها من الوصول إلى العمق الإفريقي.

كان هذا الموقف، فضلاً عن النزوع الحيادي للرئيس التالي كنيدي في قضية الصراع العربي الإسرائيلي، واغتياله إثر ذلك على أيدي اللوبي اليهودي في أمريكا.

كان هذا وذاك دفعة أخرى جاءت لكي تعزّز وجهة نظر (ابن العم) وكل الشباب الذين يحذون حذوه.

ثم ما لبثت أن وقعت حرب فيتنام، وكشفت أمريكا عن وجهها القبيح، الذي تحدّث به القاصي والداني... تلته سلسلة من جرائم الحرب الدولية التي نفذتها أمريكا في أماكن مختلفة من العالم، وبخاصة في لبنان والصومال.

ثم ما لبث بوش الابن أن جاء لكي يتمّم مسيرة السوء، محمّلاً هذه المرّة، برؤيته الإنجيلية الجديدة الملتحمة بالأساطير اليهودية، وبمطامع إسرائيل... ومعها نزوع (هوبزي) لا يجد أي ضير في اعتماد أقصى وسائل القوة لسحق الخصم وفرض الهيمنة الأمريكية على العالم، بعيداً عن منظومة القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية، فيما شهدناه بأم أعيننا في أفغانستان والعراق... والصومال كرّة أخرى.

لم يجد بوش عبر سنيّ حكمه المزدوج أيما رادع لاعتماد كل صنوف الغدر، والكذب، والتخريب، والدمار، والإبادة الجماعية، والإلغاء الثقافي، والتعذيب النفسي والجسدي... والأعمال «القذرة»

بكل صنوفها، في البلدان المذكورة. والذي يكتب هذه الكلمات، هو الذي رأى وسمع، وهو شاهد عيان على الكثير من هذا الذي تمت الإشارة إليه.

وبإنجيليته الجديدة مارس بوش عملاً آخر لا يقلّ أذى للضمير الأمريكي والصورة الأمريكية في وجدان العالم، وذلك بالتحامه بالفكر الصهيوني القائل بضرورة قيام إسرائيل المغتصبة، وتوسّعها، واستمرارها حتى لحظة نزول المسيح عليه السلام.

والأعمال القذرة التي مارسها في أفغانستان والعراق والصومال، ها هوذا يمارسها في الساحة الفلسطينية بصيغ دعم مطلق للإسرائيلي على حساب الفلسطيني، في كل حلقات السوء التي شهدها الصراع المتطاول بين الطرفين.

وها هي ذي حلقة عمل آخر، وليس الأخير من نوعه، يمكن أن يكون واحداً من أبشع الأعمال القذرة في تاريخ البشرية، إن لم يكن أبشعها على الإطلاق: إرسال باخرة أمريكية محملة بالسلاح والعتاد والذخيرة إلى إسرائيل، مخترقة الضمير العالمي كله، لكي تقتل بها أبناء الشعب الفلسطيني في غزة الصابرة المحتسبة.

وعلى تغاير رأي الكثيرين مع وجهة نظر (ابن العم) التي بدأنا بها المقال؛ فإن المرء يجد نفسه مضطراً للمقارنة بين آيزنهاور وكنيدي من جهة، وبين بوش من جهة أخرى، حيث الفارق بين الطرفين كبير... بين زعيمين حبّبا أمريكا لقطاعات

واسعة من أجيال الشباب في العالم، وزعيم دفعها إلى مقتها وكراهيتها واحتقارها.

وأغلب الظن أن آيزنهاور وكنيدي، لو قدّر لهما أن يرجعا إلى الحياة كرّة أخرى، فإنهما سيباركان اليد التي ضربت بوش بالحذاء!!



١٨

بين «مقدمة ابن خلدون» وكتابه في التاريخ...

إن الفرضية القائلة بأن «ابن خلدون» لم يطبق ما ورد في (مقدمته) من مبادئ ومعايير، على كتابه الكبير (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، يصعب تعميمها على الكتاب كلّه، ولكنها تصدق على معظم مساحاته.

فلقد تضمّن الكتاب الثاني من (العبر)، وهو الخاصّ بتاريخ العرب والإسلام في المشرق ومن اتصل بهم، تحقيقات علمية هامة عن تراث أسلافه من المؤرخين الذين كتبوا عن هذا التاريخ كابن إسحق وابن هشام والواقدي والبلاذري وابن عبد الحكم والطبري والمسعودي وابن الأثير، فاستبعد بعض رواياتهم على أنها محض اختلاق غير ممكن الحدوث بحسب طبائع الأشياء وقوانين العمران، وشكّ في صحة بعضها الآخر على أنه موضع ريبة، وقد بنى هذه التحقيقات على ما قرّره في مقدمته بصدد الاجتماع الإنساني، ومناهج البحث العلمي، وقواعد التحرّي التاريخي.

ولكن تبقى معظم مساحات الكتاب بعيدة عن الإفادة من منهج ابن خلدون في المقدمة.

ورغم أن ابن خلدون كتب مقدمته في النصف الثاني من عام (٧٧٩هـ)، أي بعد فراغه من تأليف معظم أقسام (العبر) التي بدأ العمل فيها عام (٧٧٦هـ)، إلّا أنه عاد أكثر من مرّة، وبخاصة لدى استقراره في مصر، إلى تنقيح العبر والمقدمة نفسها، وإضافة فصول ومقاطع إليهما، وكان بمقدوره أن ينفذ تطبيقات أكثر لمنهجه في المقدمة على كتابه (العبر)، ولكنه على ما يبدو لم يفعل.

أما الأسباب التي حدت بابن خلدون إلى ذلك، فيصعب تحديدها، علماً بأن معظم الذين كتبوا عنه أدهشتهم (المقدمة)، فلم يهتموا بمسألة تنفيذها على (العبر)، ولعلّ السبب يكمن في اتساع الكتاب المذكور، وكثافة مادته، وانتشارها الواسع في الزمن والمكان، فضلاً عن انشغال ابن خلدون بالوظائف العامة التي استنزفت معظم وقته، بدءاً من مهمات القضاء وانتهاء بالسفارات والرحلات الرسمية.

هذا إلى أن المبادئ والمعايير التي طرحها في المقدمة تقتضي إذا ما أريد تنفيذها على كتاب (كالعبر) جهداً استثنائياً خارقاً، لم يكن بمقدور ابن خلدون ـ للأسباب المذكورة ـ تحقيقه. ومع ذلك كلّه، فما دام الرجل قد كتب مقدمته لكي تكون في الأساس مدخلاً إلى (العبر)، فإن مسؤولية هذا الانفصال

المربك تظل في رقبته حتى يجد الباحثون ما يبرره، ولعلهم لن يجدوه أبداً...

ويتذكر المرء ها هنا تلك التحليلات الرائعة لعدد من قضايا التاريخ الإسلامي في (مقدمته)، ويتمنى لو امتدت بها المساحات، أو لو أنه مارس المهمة نفسها في كتابه (العبر)... فهو ـ على سبيل المثال ـ يخصص في الباب الثالث من مقدمته، والمعني بمسألة (الدول)، فصلاً مطولاً بعنوان (انقلاب الخلافة إلى الملك)، يسعى من خلاله إلى تحليل حركة التأريخ الإسلامي، منذ فجر الدعوة وحتى عصر بني العباس، ملتزماً إلى حد كبير رؤية دينية واضحة تستمدّ مقوماتها من معطيات الإسلام نفسه كتاباً وسنة.

وهو في موضوع آخر يتحدث عن دور الدين الإسلامي في جمع العرب على كلمة واحدة، وتمكينهم من الملك، تحت عنوان «إن العرب لا يحصل لهم الملك إلّا بصبغة دينية من نبوّة أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة»، ويتدرج في البرهان على مقولته هذه.

وهو إذ يؤكد على الخلافة ـ كأعلى مؤسسة سياسية في الدولة لعب العرب المسلمون من خلالها دورهم الكبير ـ وعلى الوظائف والمؤسسات التي تليها في الأهمية؛ يشير بوضوح إلى شمولية الدور الذي تميزت به تلك المؤسسات جميعاً، والذي كان يعالج في وقت واحد قضايا الدين والدنيا، وبذلك استطاعت هذه المؤسسات أن تؤدي مهمتها بجدارة في تسيير شؤون الدولة

الإسلامية، التي هي ليست بالدولة الوضعية (الدنيوية) ولا بالكهنوتية (الروحية).

وهو يحاول، في موضع آخر، أن يضع يده على أحد الأسباب التي تكمن وراء انتصار المسلمين في عهد الرسول (ﷺ) وخلفائه الراشدين (رضي الله عنهم)...

وهو في المدخل الذي مهّد فيه لمقدمته، حيث تحدّث عن أهمية علم التاريخ، وعن المعايير التي يتوجّب على المؤرخ أن يأخذ بها لتجاوز الوقائع الكاذبة، ورفض ما لا يمكن تصديقه؛ يعبّر ابن خلدون عن رؤيته الدينية والتزامه، ويسعى جاهداً بأسلوبه النقدي لتنقية جوانب من التاريخ الإسلامي ورجالاته الكبار، أحاطت بها وبهم، الشوائب والأكاذيب، حيث يناقش ويفنّد مسألة العلاقة بين العباسة أخت الرشيد وجعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، وأنها كانت السبب وراء نكبة الرشيد للبرامكة.

كما يناقش ويفند أكذوبة انكباب الرشيد على الخمر، واقتران سكره بسكر الندامى... وينتقل ليناقش ويفند ما أشيع عن أحد رجالات الدولة العباسية ـ على سبيل المثال ـ وهو يحيى بن أكثم قاضي المأمون، من أنه كان يعاقر الخمر ويميل إلى الغلمان، ويبيّن كيف أنه وخليفته المأمون كانا يلتقيان على الحق والتزام أوامر الشريعة... لا بل هو يمضي إلى تبرئة الكثير من خلفاء بني أمية الذين سبقوا العباسيين، ويؤكد على أخلاقية العرب الذين

كانوا يأخذون أنفسهم ـ كما يقول ـ بالتخلّق بالمحامد وأوصاف الكمال.

وفي هذا كله موقف واضح يقفه ابن خلدون إزاء بعض معطيات الحملة الشعوبية ضد الإسلام والعرب، والتي أخذت تطلّ برأسها منذ العصر العباسي الأوّل...

ومرة أخرى، يتمنى المرء أن لو مارس ابن خلدون منهجه النقدي هذا على كتابه (العبر)... ولكن!!



١٩

جرح وتعديل في القرن الحادي والعشرين...

لو جئنا في مقال موجز كهذا، إلى مفكر كـ «ساطع الحصري»، له مركزه المهم على خارطة فكرنا المعاصر، بما دعا إليه في كتبه وأبحاثه جميعاً من فصل الدين عن مكوّنات القومية العربية، ومن إبعاد العرب عن كل تجربة كان الإسلام قد منحهم إياها، وعلّمهم بها، وشحن أرواحهم بمعانيها ومعالمها، مفكر كهذا لا يمكن أن نقرأ معطياته، ونقيّمها، بعيداً عن «شخصه» بميوله وانتماءاته ونزواته الخاصة... باختصار، لا يمكن تقييم (فكر) ساطع الحصري بمنأى عن تاريخه الشخصي.

إن ساطع الحصري، هذا المربّي الكبير، والمفكر القومي التقدمي، تولى الإشراف على أجهزة ومؤسسات العراق التربوية والتعليمية في فترة العشرينيات والثلاثينيات، التي كان الإنكليز فيها يصولون في دوائر العراق المختلفة ويجولون... ورسم خطوط التربية، كما طلب منه سادته أن يرسمها، دون تغيير ولا تبديل،

مبتدئاً، بقراءة «الصفوف الابتدائية الأولى»، المسماة باسم ابنه، (القراءة الخلدونية)، ومنتهياً بالمناهج الثانوية.

ونحن لو قرأنا «قراءته» الخلدونية تلك، فسوف نجده يصوغ كل عبارة، أو جملة مفيدة، يتعلم بها الطلاب أصول القراءة والكتابة، إلّا عبارة يذكر فيها اسم الله، أو اسم رسوله (ﷺ)، أو شيئاً من تاريخ أمتنا، على العكس تماماً من القراءات الأولية التي يدرس بها الأطفال في دول العالم أصول القراءة والكتابة.

ولا ريب أن هذا التجريد العلماني الخطير، الذي ينصبّ في ذهن الطفل منذ سنة تعليمه الأولى، والذي سيلعب دوره الفعال في فصل القيم الدينية في ذهن الطفل عن القيم اللغوية، أو القومية؛ لم يجئ عبثاً، ولكنه مرسوم بخبث ودهاء، ومن ورائه خبراء وخبراء، لا يمكن أن نرجو منهم ـ وهم مستعمرونا ـ لأبنائنا خيراً.

ويكفي ها هنا ـ بعيداً عن الدخول في التفاصيل ـ أن نستعيد ذلك التحدي، الذي أثارته إحدى رابطات المعلمين في العراق بوجه ساطع الحصري، في إحدى زياراته للعراق، ملعب فكره الأوّل، ومغنى نشاطاته التربوية الهادفة... فلعّل في هذا التحدي، المطروح على شكل عدد من الأسئلة، التي ظلّت معلّقة دونما جواب... لعل فيه نموذجاً واحداً من مئات النماذج التي يمكن أن نعثر عليها في تاريخ فكرنا المعاصر، بمجرد أن نلجأ إلى أسلوبنا الأصيل في التقييم، ذلك الذي ابتكره أجدادنا، وجاءت معطيات علم النفس لكي تقرّه، حيث لا انفصام بين الشخص

كمجموع طاقات، وبين فكره كطاقة واحدة من هذا المجموع المعقد المتشابك، وحيث لا حواجز بين باحث من الباحثين وبين (تاريخ حياته الشخصي)، مهما ادّعى من علمية وموضوعية وتجرد عن الذات...

وإذا لم تكن الأسئلة التي جوبه بها ساطع الحصري قد لقيت جواباً، فما أكثر الأسئلة والتحديات التي يمكن أن تثار بوجه أولئك الخصوم، الذين باعوا كرامة العلم، وتنازلوا عن أخلاق العلماء، من أجل أن يشتروا بالعلم والكرامة ثمناً قليلاً!!

ماذا يقول التاريخ الحديث للصفوف الخامسة الإعدادية عن السلطان عبد الحميد الثاني، على سبيل المثال؟

صورة رجعية كالحة عن السلطان المنكود، وأخرى تقدمية مشرقة عن الاتحاديين الأحرار... هذا ما يريد أن يقوله لطلبة الإعداديات، رفاق ساطع الحصري وتلامذته ومنفذو خططه التربوية الهادفة، بخلاف ما تقوله الوثائق والمذكرات والدراسات العلمية عن هذا الرجل...

إن الماركسية لا يمكن أن نجردها عن «شخصية» ماركس ومكوناته الذاتية وأخلاقياته وانتماءاته ورواسبه اللاشعورية وتأثراته البيئية... إلى آخره... وعلم النفس التحليلي لا يمكن أن نجرده عن «شخصية» فرويد ومكوناته الذاتية... وهكذا بالنسبة لكل مفكر قدّم عملاً في حقل ما من حقول العلوم الإنسانية. ولا يمكن أن يكون علماؤنا ومفكرونا أقل اندفاعاً وراء مؤثراتهم الذاتية،

وتكويناتهم الشخصية، وانتماءاتهم الدينية أو السياسية... على العكس، فكثيراً ما نجد هناك، كشرقيين، منهزمين مغلوبين على أمرهم، وكأناس يطغى عليهم الجانب الانفعالي، حتى في أشد القضايا موضوعية، نجدهم ينساقون، شعروا أم لم يشعروا، أرادوا أم لم يريدوا، وراء نداءاتهم الخاصة ومصالحهم الذاتية، ومن ثم تجيء أبحاثهم، وهي أشد درجة في تعبيرها عن شخصياتهم، ومن ثم أكثر بعداً ـ في معظم الأحيان ـ عن الموضوعية والحياد. وهذا يحتم ـ ولا ريب ـ العودة إلى التزام أسلوب النقد الخارجي الذي مارسه آباؤنا وأجدادنا، وميّزوا به وبغيره صحيح الروايات والأعمال من رديئها وسقيمها.

إن كتباً عديدة، تصدر في أعقاب هزيمة نكراء بوجه الصهيونية، كان سببها الرئيسي تخلّينا عن التزاماتنا الدينية، قيادات وقواعد، وانتصار شعب ضئيل العدد، مشتت الجنسيات، علينا، بسبب عقيدته الدينية... هذه الكتب التي صدرت في فترة كان الحسّ الإسلامي فيها يتحرك من جديد ليمارس دوره في تجميع جماهيرنا، ومنحها القدرة على المقاومة والانتصار... كتبٌ كهذه لا يمكن أن نقيّمها دون أن نسلّط الأضواء ـ أولاً ـ على شخصية أصحابها، وانتماءاتهم ومصالحهم الخاصة، التي ربما كانت السبب الأوّل في دفعها إلى الوجود

... هذا ما يمكن أن يقال عن مفكرين من أمثال (لويس عوض) و (سلامة موسى) و (غالي شكري)؛ الذين انتموا ظاهرياً

لليسار والماركسية، واحتفظوا سرّاً بركام عقود طويلة من الغلّ الطائفي والحقد، الذي لا يستقيم معه علم ولا يستبين طريق...

وآخرون كثيرون من كتّابنا ومفكرينا، لا يحصيهم العدّ، تخرج كتبهم وأبحاثهم إلى الوجود وهي مرسومة بميسم مؤثراتهم الشخصية التي لا تزول... منهم من أثّرت في معطياتهم مراكز دراساتهم في الغرب أو في الشرق، ومنهم من أثّرت فيها طبيعة علاقاتهم الشخصية وصداقاتهم، وآخرون كان لاختيارهم زوجات من الغرب تأثير عميق في أفكارهم، لا يمحوه من أذهانهم مرور الأشهر وانصرام السنين... وثمة فئة رابعة تستهويها إغراءات الذهب والفضة، وتغدو مستعدة لأن تبيع أفكارها بالدرهم والدينار... وفئة خامسة يلوَّح لها بالمناصب والمراكز... وسادسة تحتوشها شياطين الغرب في المراكز العلمية، والجامعات، فتنفخ في روحها باسم الإنسانية والبناء الحرّ، ما يشاء لها الحقد والهدم والهوى أن تنفخ في رؤوس وأفئدة هؤلاء المساكين... وسابعة تسقطها شهواتها في حمأة الرذيلة، فلا يروق لها أن تكتب وتنشر عن الآفاق المضيئة من حياة الإنسان وفكر الإنسان وتاريخ الإنسان...

وهكذا... وهكذا... فئات وطوائف وأشخاص لا يحصيهم العد، طرحوا في الأسواق مئات الكتب والبحوث التي لعبت دورها الخطير في رسم مسارات فكرنا المعاصر، وفي توجيهنا، وفي هزيمتنا أيضاً...



٢٠

حرّروا الظهور من السياط...

الأمة التي ترتفع فيها أثمان كل شيء، ولا يرخص الّا الدم، أمة بحاجة إلى تغيير أساسي في مواقفها جميعاً...

ومن عجب أن يرتبط هذا (الرخص) لأغلى شيء في الحياة، بما يسمونه حركة التاريخ التقدمية... معنى هذا أن التقدم يستلزم حصد الرؤوس وقطع الرقاب، وفق الأسلوب الروبسبييري المعروف.

وليس هذا هو المهم، فما أكثر الخونة والرجعيين الواقفين في طريق الشعب المشروع صوب مطامحه وأمانيه، أولئك الذين يستحقون القتل والإبادة...

المهم هو من بيده صلاحية تحديد المخلص من الخائن، والتقدمي من الرجعي، قبل إنزال المقصلة على الرؤوس؟ خاصة وأن حركة التاريخ التقدمية هذه توصل إلى مراكز المسؤولية في كثير من الأحيان أصحاب الأذرع القوية لا العقول المفكرة... والانتماءات الحزبية أو العصبية الضيقة، لا الشعبية أو الجماهيرية الواسعة، ونزعات الطغيان الفردي لا العدل الشامل؟

ومن ثم تجيء دوافع حماية النفس، وسط تقابل غير عادل

بين قلّة تملك الحكم والمال والجاه والسلطان، وكثرة لا تملك شيئاً، إلّا أنها، لسعتها وامتدادها، تمثل تحدياً خطيراً للقلة الحاكمة المبرّرة بشعارات التحرّر والتقدمية.

وبمواجهة هذا التحدي تلجأ هذه القلة إلى الإرهاب... وليس كسفك الدم، واسترخاص الإنسان، قدرة على تنفيذ هذا الهدف المريح، وتحقيق جشعه، الذي يظل يتصاعد ويتصاعد مع الزمن، وبأسلوب طردي، كردّ فعل دائم لاتساع نطاق التحدّي، وازدياد توتّره بين الحاكم والمحكوم.

وخلال هذا تشهد دائرة القلة الحاكمة نفسها تصدعات وانشقاقات، تدفعها إلى تناحر حاسم على السلطة، لا يصل فيه ويضمن البقاء والاستمرار الّا من يسفك دماً أكثر... ومرة أخرى، يكون الشعب هو الضحية، ويكون استرخاص الدم واحتقار الإنسان، أشبه بالدوّامة التي يجريها الأدهى والأقوى، والتي لا تطحن في أعماقها المنشقين فحسب، بل تمتد وتتسع لكي تلتهم كل من يُشكّ بعدم موالاته للسلطان الجديد.

لكن أخطر ما في هذه الجريمة، التي ألفتها أمتنا خلال عقودها الأخيرة، فحوّلت أكثرياتها الساحقة إلى نعاج لا ترفع رأسها إلى فوق، ووسمتها بطبائع القطيع؛ أن عملية (الحصاد) الجماعي هذه لا تقتصر على أولئك الذين تثبت فعلاً، وبالأدلة القاطعة والبيّنات الملموسة، معارضتهم للنظام، ورفضهم القاطع للانتماء إليه أو التعاون معه، وهم كثرة ساحقة على أية حال؛ إنما

تمتد إلى أعماق السرائر وطوايا النيّات، لكي تحكم بالظن والتخمين، على مصائر أناس أكثر عدداً، وتسفك بالتهمة الخاطفة دماء أفراد وجماعات لا يدري إلّا اللّه سبحانه إن كانوا يستحقون القتل أم لا.

وعندما يرفض الرسول (ﷺ) ببطولة فذة، أن يجري مجزرة جماعية ثأرية شاملة، في أعقاب فتح مكة، لآلاف الرؤوس التي وقفت في طريق الدعوة طويلاً، وطاردت أتباعها وآذتهم وشرّدتهم وقاتلتهم، وفرضت عليهم العزلة والجوع... ويسحب الراية من القائد الأنصاري الذي أعلن عند مشارف البلد الحرام: «اليوم يوم الملحمة... اليوم تستحلّ الحرمة»، ويُصدر بعد قليل عفوه العام، في ظروف كانت كل المبررات تبيح له أن يسترخص دم الكفار ويحصد رؤوسهم حصداً باسم حركة الإسلام التقدمية، وحتمية انتصار التوحيد على الوثنية... عندما فعل الرسول (ﷺ) ذلك كلّه منح تاريخنا وتاريخ البشرية كله موقفاً نادراً إزاء التعامل مع الدم الإنساني، واحترامه، وحمايته، من الترخّص والتبذّل والاحتقار.

في ظلال قيادة كهذه، وعقيدة سمحة كعقيدة الإسلام، آثر المسلمون، بما فيهم المكيون الطلقاء، أن ينطلقوا لقتال أعدائهم في الداخل والخارج، مجاهدين، فاتحين ومحرّرين... مسترخصين دماءهم، بإرادتهم واختيارهم الحرّ، الأمر الذي جعلهم يتفوقون على حركات الرّدة الخطيرة، ويتحركون لوضع العالم بين أيديهم.

وما أعمق الفارق وأشده بين أمتنا، وهي تنتمي لقيادة تعزّ دم أبنائها وتحميه وتكرمه، فيختارون أن يسترخصوا دماءهم وهم يقاتلون العدوّ، لتنفيذ أهداف تلك القيادة وبرامجها، وحماية فكرها ونشره في العالم، وبين أمتنا نفسها وهي تخضع لقيادة تحتقر دم أبنائها، وتهدره وتضيّعه، فلا يكون بمقدور هؤلاء، وقد أترع الخوف خلاياهم، وملأ كل مساحات وجودهم، الّا أن يجبنوا أمام العدو ويفرّوا بين يديه كالأغنام. فعلام يسفكون دماءهم؟.. في سبيل قيادة قد توّلت هي نفسها كبر هذه المهمة، وملأت حياتهم إرهاباً ودماءً؟

إن مؤرخاً صليبياً ـ اشتراكياً (!!) مسموماً كبندلي جوزي يرى في موقف الرسول (ﷺ) ذاك، مهادنة لأرستقراطية قريش، ورجعية، وتآمراً على مصالح الجماهير!!

ويسال أحد رؤوساء محاكم الشعب التي تُستخدم كأداة قانونية في الظاهر، لتنفيذ عمليات القتل الجماعي، عن المقياس الحقيقي للثوري المخلص، فيجيبه الحاكم قائلاً: بقدر ما يسفك من دماء أعداء الثورة ومعارضيها، وبالسرعة التي يصدر بها أحكام الإعدام... ونقرأ في معطيات الفكر التقدمي المعاصر عن (العنف الثوري)، الذي لا يعدو أن يكون تبريراً للقتل، وشهادة مؤدلجة لصالح أعداء الإنسان.

ويبقى موقف رسولنا (ﷺ) بعد هذا كله، شرفاً للإنسان، وكرامة لوجوده، وانتصاراً لحريته... وتبقى أمتنا متأرجحة بين

انتماء لقيادة صالحة تعزّ دمها، ويتحتّم أن تصل بها إلى مراكز السلطة، من أجل أن تخرج إلى المعركة مسترخصة دمها في سبيل أهداف أكبر... وبين خضوع لقيادات طالحة تحتقر دمها، فتخرج إلى القتال جبانة مذعورة، بعد أن أذلّت نفوسها عمليات القتل الجماعي وسفك الدماء.

هذا هو أحد مفاتيح قضيتنا في فلسطين... ولن تكون مليون بندقية بقادرة على تحرير شبر واحد من الأرض، على أيدي مقاتلين لا تزال آثار السياط مطبوعة على ظهورهم، ولا تزال دماء إخوتهم وأصحابهم الذين قتلوا في الداخل، تشدُّهم شداً إلى الهزيمة والفرار... إنهم غير مستعدين أبداً أن يقاتلوا، وجلّادوهم في الداخل يقطفون ثمار النصر والهزيمة على السواء.



٢١

حول «إسلامية المعرفة»...
مرة أخرى...

أسلمة المعرفة، أو التأصيل الإسلامي للمعرفة، حركة علمة ومنهجية تستهدف ردّ الأمور إلى نصابها الحق، وتعديل الوقفة الخاطئة التي مارسناها بحق أنفسنا وأجيالنا على مدى قرن ونصف القرن، بتقبّل نتائج المعرفة الإنسانية الغربية على عواهنها، رغم أن المعرفة الإنسانية هي بطبيعتها احتمالية Not exact وليست منضبطة Exact، ورغم أنها علوم مقاربة وليست علوم مطابقة، ورغم أنها تنطلق من زاوية رؤية مادية، ذرائعية، ترفض الإيمان بالغيب واليوم الآخر، فيما يتناقض ابتداء مع ثوابت هذا الدين.

فإذا كان الغربيون أنفسهم ينقلبون بين الحين والحين على مسلّماتهم في مجال المعرفة الإنسانية، وبزاوية مائة وثمانين درجة أحياناً، ويمارسون إعادة الصياغة بين لحظة وأخرى، أفنكون نحن ملكيين أكثر من الملك باستسلامنا المطلق لمعطيات هذه المعرفة واعتبارها كشوفاً مقدسة؟

وإذا كان الغربيون يملكون العقل المكتشف، ومنهج التعامل مع الظواهر المختلفة، أفلا نملك نحن أيضاً الأدوات نفسها التي تمكننا من التعامل مع الظواهر ذاتها من أجل الكشف عن مكنوناتها وخصائصها وسرّها الدفين؟

وبما أن التأسيسات الإسلامية قرآناً وسنة لا تبخل علينا بإمدادنا بالمعايير الأكثر علمية وانضباطاً؛ لأنها مستمدة من علم الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي هو أدرى بمن خلق؛ أفنستبدل الذي هو خير بالأدنى، ونتقبل نتائجه التي ضيّعت، ولا تزال، أجيال المسلمين على مدى مائة وخمسين عاماً؟ والتي فعلت فعل السمّ في العقل المسلم، كما يقول ليوبولد فايس (محمد أسد) في (الإسلام على مفترق الطرق)؟

هذه هي ساحة اشتغال أسلمة المعرفة، أو التأصيل الإسلامي للمعرفة، وليس كما يتوهم البعض، أو يتعمد التوهم في أنها تستهدف صياغة فيزياء إسلامية، أو جيولوجيا إسلامية... إلى آخره، وذلك بوضع رداء إسلامي على مضامينها العلمية الصرفة، فيما لا يقول به عاقل.

والذي يقرأ كتاب (حدود العلم) لسوليفان ـ على سبيل المثال ـ سيجد كيف أن المعرفة الإنسانية الغربية لم تصل حافات اليقين، وكيف أن نتائجها بتعبير الرجل «ضعيفة ومتلجلجة».

في علوم النفس والاجتماع والسياسة والإدارة والاقتصاد والتاريخ والآداب والفنون... شهدت حركة إسلامية المعرفة تشكّل

مجموعات كبيرة من العلماء والأكاديميين الاختصاصين، الذين أنجزوا بآليات منهج البحث العلمي، عدداً لا يحصى من المؤلفات والبحوث، التي ملأت وستملأ الفراغ المطلوب، هذا إلى قيام (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) بعقد عشرات الندوات والمؤتمرات وورش العمل والسمينارات التي تمخضت عن مئات البحوث التخصصية، فضلاً عن إصدار ما يزيد على الثلاثمائة والخمسين كتاباً في السياق نفسه، وإقامة عشرات المراكز البحثية في عواصم البلدان الإسلامية والغربية، وإنشاء أكثر من جامعة تتبنى في مناهجها معطيات ومفاهيم التأصيل الإسلامي للمعرفة.

في ضوء ذلك كله، يمكن أن تتعرض حركة الأسلمة لنقد العلمانيين، أو المستلَبين للثقافة الغربية، الذين يستهدفون (سحب يد) الإسلام عن كل ممارسة عامة: سياسية أو اقتصادية أو معرفية، واعتقاله في المسجد كي يفقد القدرة كلياً على إعادة صياغة الحياة في ضوء معارف الوحي التأسيسية، التي يتحتم أن يقوم عليها البناء.

أما المنتمون لهذا الدين باعتباره مشروعاً استخلافياً حضارياً، يستهدف وضع الإنسان والجماعة المسلمة في قلب الفاعلية، ويحمّلها مسؤولية (الشهادة) على مسيرة البشرية، بقوة المعرفة اليقينية الحقة؛ فإنهم واجدون أنفسهم ـ بالضرورة ـ من المؤمنين بأهداف أسلمة المعرفة، التي ترفض الاستسلام لنتائج

المعرفة الغربية الظنية، وتستبدلها بما هو أكثر توافقاً مع منطوق العلم اليقيني الذي جاء به هذا الدين.

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه، وكأنه يصنف تلك المعرفة الغربية ويدعو إلى استبدالها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].



٢٢

حول الإنسان
في المنظور «النورسي»...

يحتل الإنسان في المنظور النورسي مكانة متميزة، فهو المقصود من حكمة خلق الكائنات، وهو نتيجتها العظمى وثمرتها النفيسة... ولا غرو فهو خليفة الأرض، والمكلف بعرض صنائع الخالق البديعة وتنظيمها بشكل جميل جذاب. ومن أجل ذلك أُجِّل عذابُ عصيانه وكفره، وسُمح له بالعيش في الدنيا، وأُمهل ليقوم بهذه المهمة بنجاح.

والإنسان في المنظور النورسي، والايماني عموماً، يمارس وظيفة جمالية، لكن هذه الوظيفة ليست نهاية المطاف، وإنما هي فرصة للتحقّق أكثر فأكثر بالسوية المرتجاة للإنسان، والتي بها يصير الكائن المتفرّد الذي يسود الخلائق ويتميّز على العالمين، ويمسك بزمام المصير.

إنها المهمة التي تنطوي في نهاية الأمر على بطانتها الروحية، والتي تتجاوز الحسّ القريب إلى ما وراءه، والشكل إلى

المعنى والمغزى، والتعدّد إلى الوحدة، والموقوت الفاني إلى عالم الدوام والخلود.

إن الدين في هذه الحالة، بما ينطوي عليه من منظومة متجذرة للقيم الخلقية، يمارس دوراً فاعلاً ومؤكداً في بناء الفرد، وبالتالي في صياغة المجتمع، حيث نجد أنفسنا إزاء ثنائية الفرد والمجتمع، والتي ما التقت في دين أو نظام كما التقت وتواءمت في الخبرة الإسلامية. وإذا كان مفكر فيلسوف كمحمد إقبال يمضي إلى المدى في كتابه **(تجديد الفكر الديني في الإسلام)** لتأكيد مبدأ التحقّق الذاتي للإنسان الفرد في الإسلام؛ فإن مفكراً آخر كرجاء كارودي يمضي في الاتجاه الآخر عبر كتابه **(وعود الإسلام)** ليؤكد مبدأ التحقّق الجماعي في الإسلام، من خلال فكرة التسامي أو التصعيد، حيث تتحرك أمة بكاملها بقوة الدين إلى الأحسن والأفضل والأعلى.

مهما يكن من أمر، فإن الإنسان في المنظور النورسي تتعين قيمته كإنسان بقوة الإيمان، ويتحول إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة، حيث يصبح أهلاً للخطاب الإلهي.

والنورسي، في كتاباته كافة، يتحرك، وهو يتعامل مع جماليات الكائن البشري المتفرد على مستويات ثلاثة: جماليات الصنعة ودلالاتها، الجماليات الحسّية، وجماليات الروح والوجدان.

وبمجرد متابعة متأنية لهذه المحاور الثلاثة في كتابات النورسي، واستدعاء الشواهد التي تؤكدها في بدء التحليل ونهايته؛

يتبيّن كيف أن النورسي قدّم واحدة من أكثر الصور تألقاً للإنسان، الذي يصوغه هذا الدين، فيما عجزت عنه جل الأديان والمذاهب والفلسفات الأخلاقية، التي قطعت شوطاً في الطريق، ثم ما لبثت أن أعلنت عن فشلها؛ لأنها لم تكن تملك ـ ابتداءً ـ القوى الدافعة القديرة على تحقيق إنسانية الإنسان.

فبالعبادة والتفكير ـ كما يخلص النورسي ـ يصبح الإنسان إنساناً حقاً، ويظهر نفسه أنه (في أحسن تقويم) فيصير، بيمن الإيمان وبركته، لائقاً للأمانة الكبرى، وخليفة أميناً على الأرض.



٢٣

حول التفاوض مع الآخر...

سأتناول ـ وبإيجاز تام ـ المسألة من الزاوية التاريخية الصرفة، أما بعدها الفقهي، والقانوني، والسياسي، فقد تولّاه الباحثون كلٌّ في دائرة تخصّصه.

وأغلب الظن أن الجميع متفقون على أن التفاوض مع (الآخر)، أو التهادن معه ـ على تغاير التفاصيل ـ لن يتشكل في دائرته الطبيعية المتفق عليها، ما لم يكن الطرفان أنداداً، إن على مستوى القوة (مع إعطاء هامش معقول للفارق)، أو على مستوى الاستقلالية التامة في اتخاذ القرار، دونما أي قدر من الضغط، أو القسر، أو الإكراه، لهذا السبب أو ذاك.

وأولى شروط الندّية، ولا ريب، هي أن يكون لكل من الطرفين «دولة» أو سلطة فاعلة تمتلك مقوّماتها الدستورية والعسكرية والسياسية كاملة، وتملك حق اختيار الشروط المناسبة، والموازنة بين المكاسب الضرورية الملحّة، وتلك التي يمكن التنازل عنها أو التساهل بخصوصها.

وبقدر تعلُّق الأمر بهذه الورقة؛ فإن التأشير سيمضي إلى

الخبرة التاريخية للبحث عن مؤشرات العمل المتحققة في هذه المرحلة أو تلك من تاريخنا الإسلامي.

أما تنزيل ذلك على القضية الفلسطينية، أو الاستهداء به لإضاءة السبيل أمامها في اللحظة الراهنة، فذلك أمر متروك ـ أولاً ـ لأصحاب القضية أنفسهم، فهم أدرى بشعابهم، وثانياً للمختصين في الفقه أو القانون أو السياسة، فهم بسبب من أدواتهم أَولى بالحكم على مطالب اللحظة الراهنة من المؤرخ، الذي تنحصر مهمته في الكشف عن الوقائع التاريخية، والبحث عن مغزاها في هذا السياق أو ذاك.

ومن أجل التركيز، وعدم تجاوز المساحة المعطاة لهذه الورقة، سيتم التأشير على حلقتين تاريخيتين فحسب، هما عصر الرسالة، وعصر المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، بسبب من ارتباطهما الوثيق بالموضوع الذي بين أيدينا.

ففي الحالتين المذكورتين، كان المفاوض المسلم يملك «دولة» ذات قرار مستقل، ويتعامل بتكافؤ تام مع الطرف الآخر... يأخذ ويعطي... يقبل ويرفض... يتشبث ويتساهل... منطلقاً من كونه صاحب الرأي الأوّل والأخير في الشروط التي سيتم الاتفاق عليها بكل تفاصيلها ومواصفاتها.

في «صلح الحديبية» مارس الرسول القائد (ﷺ) تفاوضه مع المبعوث القرشي (سهيل بن عمرو) ممارسة الندّ للندّ... صحيح أنه ـ لحكمة يريدها ـ قَبِلَ التنازل عن بعض الأمور الإجرائية، التي

لا تزيد ولا تنقص في شروط المعاهدة، ولكنه خلص إلى جملة اتفاقات كشفت الأحداث اللاحقة عن كونها جاءت لصالح المسلمين، رغم أنهم لم يرتاحوا في البدء لما اعتبروه نوعاً من التنازل... ولكن أبا بكر (رضي الله عنه) لمس برؤيته الثاقبة الحصاد الكبير، الذي سيتمخض عن شروط الصلح، التي عزلت مكة قاعدة الوثنية، عن أنصارها في جزيرة العرب، وجمّدت مقاومتهم لانتشار الإسلام، الذي امتدت دعوته إلى اليمن جنوباً، ومكّنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) من التفرغ لضرب آخر تجمع يهودي عسكري معادٍ في خيبر.

وبالنسبة لـ **«صلح الرملة»** الذي عقده الناصر صلاح الدين (الأيوبي) مع الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد، الذي كان يقود الحملة الصليبية الثالثة على بلاد الشام وفلسطين، فقد جاء بعد سنوات قلائل من ذلك الانتصار الكبير الذي حققه الناصر ضد الصليبيين في معركة حطين (٥٨٣هـ)، واستثماره الفوز ليس في تحرير القدس فحسب، وإنما في القيام بحركة عسكرية سريعة لتحرير معظم البلدان من قبضتهم، بحيث لم يتبق لهم في نهاية الأمر سوى شريط من الأرض مطل على البحر لا يتجاوز التسعين ميلاً طولاً وبضعة أميال عمقاً... ورغم أن الحملة الصليبية الثالثة قد حققت انتصاراً مهماً في إسقاط عكا واتخاذها نقطة ارتكاز للردّ على المسلمين؛ إلّا أن الصراع الذي شهدته السنوات التالية (٥٨٣ ـ ٥٨٨هـ) لم يتمخض عن نتيجة حاسمة، ومحاولات الصليبيين لاسترداد القدس باءت بالفشل.

وعندما جرت مفاوضات «صلح الرملة» كان صلاح الدين

يتعامل كندّ قوي لخصمه الإنكليزي، وكان يملك دولة تمتد من الأناضول شمالاً حتى اليمن جنوباً، ومن الجزيرة الفراتية والشام شمالاً حتى ليبيا والنوبة، غرباً وجنوباً. ولذا جاءت شروط ذلك الصلح مؤكدة بقاء القدس بيد المسلمين شريطة أن يسمح للحجاج المسيحيين بأداء مراسمهم فيها بسلام.

ومن المعروف لدى جلّ المعنيين بالهمّ السياسي أن هناك ثلاث حالات في أي تفاوض أو تعاهد بين طرفين، أولاها أن تكون أنت الأقوى فتخرج بشروط أفضل وأكثر ضماناً، وثانيتها أن تكون ندّاً للآخر فتخرج وإياه بشروط متكافئة، وثالثتها أن يكون الآخر أكثر قوة وتمكّناً منك فتخرج بشروط قد لا يكون بعضها على الأقل في صالحك.

والآن، فإن ثمة جملة من الأسئلة والإشكاليات تفرض نفسها قبالة هذا العرض التاريخي الموجز، وتتطلب جواباً...

ومن بين هذه الأسئلة، وربما أكثرها إلحاحاً، هو هل أن الفلسطينيين امتلكوا أو سيمتلكون المقومات والشروط التي تجعل من تفاوضهم مع الآخر، أو التهادن معه، أمراً ممكناً يتحقق معه مبدأ حماية الثوابت الفلسطينية المتفق عليها، من مثل: القدس عاصمة للدولة الفلسطينية، وحق عودة اللاجئين، والتحقّق بالشروط الجيوبوليتكية للدولة الفلسطينية، بما في ذلك إزالة الجدار العازل، وإلغاء المستوطنات، وتحقيق التواصل الجغرافي الديموغرافي بين الفلسطينيين؟! وهي جميعاً أمور حاسمة كافح الشعب الفلسطيني من أجلها ما يزيد على نصف القرن من الزمان...

٢٤

حول العصر الراشدي...

لدى الحديث عن الإنجازات الحضارية لعصر الراشدين، لا بدّ من التأكيد على مسألة بالغة الأهمية، وهي أن هذا العصر، الذي يمثل استمراراً للعصر النبوي، كان عصراً تأسيسياً على المستوى الحضاري، بمعنى أنه عني بالدرجة الأولى بترتيب منظومة الشروط الإسلامية للفعل الحضاري، وتهيئة المناخ المناسب الذي يتيح قيام الحضارة ابتداءً.

أما النموّ والازدهار، فهو يجيء في المرتبة التالية، لأنه ينبني أساساً على منظومة الشروط المرتبة سلفاً... وقد يتأخر تشكُّل مفرداته وجزئياته بعض الوقت... وبالتالي فإن على الدارس لهذه المرحلة ألّا يتجاوز الأولويات، بأن يعطي اهتمامه بالدرجة الأولى لهذه الجزئيات الحضارية التي قد تستغرقه تماماً؛ وإنما عليه ـ بدلاً من ذلك ـ تسليط الضوء على الشروط التي مكّنت عصر الراشدين، ومن قبله عصر الرسالة، من تنفيذها في واقع الحياة.

وبما أن الإسلام هو نظام استخلافي عمراني، حيث أنيطت بالإنسان المسلم والجماعة المسلمة مهمة الاستخلاف في الأرض

وإعمارها: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود: ٦١].

فإن أي نشاط لتعزيز الوجود الإسلامي في العالم، هو نشاط حضاري بالضرورة، فإذا ما جئنا ـ على سبيل المثال ـ لتحليل النظام الإداري في العصر الراشدي، فإننا سنجد أنفسنا بإزاء نشاط خصب في نظم الدولة باتجاهاتها كافة. ويستطيع المرء أن يميّز نمطين من الجزئيات التي تمّ تنفيذها في هذا المجال. أما **النمط الأوّل**، فيتمثل بالاقتباس عن الآخر: الفرس والبيزنطيين بالدرجة الأولى، والجماعات المنتشرة في المنطقة التي شملها الفتح، والتي كانت تمثل امتداداً لثقافات محلّية سابقة... بالدرجة الثانية.

وقد دلّ هذا الاقتباس على جملة أمور، لكن أبرزها ولا ريب هو قدرة المسلمين وقيادتهم الراشدة على التعامل مع الآخر دونما أية عقد أو حساسيات، حيثما تطلّب الأمر تعاملاً كهذا، لاسيما في فترات التأسيس الأولى، التي كانت الدولة منشغلة خلالها بالمهمات الأكثر إلحاحاً: القضاء على تحديات الردّة والتنبؤ، وفتح العالم، وحيث لم تكن الدولة الجديدة، لحظات تشكلها تلك، تملك أجهزة

ومؤسسات وحلقات إدارية تغطي المطلوب عبر تلك المراحل المبكرة.

أما **النمط الآخر** من الجزئيات الحضارية، فقد تشكل ابتداء، كاستجابة للحاجات الملحّة للدولة الناشئة، واعتبر ـ بمرور الوقت ـ جهداً إسلامياً مستقلاً. ولكن هذا لا يعني أنه حتى ها هنا ما كانت قنوات التفاعل مع الآخر تعمل عملها تعديلاً وإضافةً وإغناءً...

وفي الحالتين: الاقتباس والإنشاء ابتداءً، كانت الجزئيات تبدأ بسيطة متواضعة، ثم ما تلبث، بمرور الوقت وازدياد الحاجة، أن تنمو وتتسع وتزداد تعقيداً، وقد تكون مؤسسة (الدواوين) واحدة من أفضل الشواهد على ذلك.

نخلص من هذا إلى أن نظام الحكم في العصر الراشدي، بأطره العامة وتأسيساته ومفرداته الإدارية، بروحه ونبضه وتوجُّهاته، كان حكماً إسلامياً، استجاب بنجاح لمقاصد الشريعة، وتمكّن من تنزيلها على واقع الحياة، وعرف كيف يوظف الحلقات الإدارية للإعانة على هذا الهدف الأساس.

ولقد كان بمقدور المؤرخين والباحثين في كل عصر أن يجدوا هذا الملمح العميق في نسيج الحكم الراشدي، ليس فقط من خلال الإجراءات الإدارية (التنفيذية)، وإنما ـ أيضاً ـ من خلال الروح الشورية لتداول السلطة، وسلوكيات كبار مسؤولي الدولة، بدءاً من الخلفاء أنفسهم (رضي الله عنهم)، وانتهاء بأصغر كاتب أو

موظف. تلك السلوكيات التي أثارت الدهشة ـ ولا تزال ـ بتألُّقها، وقدرتها الفريدة على تنفيذ مطالب العقيدة ومقاصد الشريعة، بما يؤكد قدرة هذا الدين على التحقّق في واقع الحياة، والتعبير عن نفسه على مستوى الفعل والممارسة.

ويستطيع المرء، بغير ما عناء، أن يجد نفسه قبالة كثافة ملحوظة في المرويات التاريخية بهذا الخصوص، ولن يتسع المجال في مقال كهذا لاستقصائها وإيرادها، فهي تكاد أن تكون معروفة للجميع.



٢٥

حول العلوم الإنسانية...

ليس ثمة كالعلوم المسماة بـ (الإنسانية) أداة ذات قدرة عالية على التبديل والتفكيك وإعادة الصياغة في البنية الحضارية للأمة، بسبب من كونها تنبثق عن خلفيّات رؤيوية شاملة، وتنهض قائمة على منظومة من التصوّرات والمذاهب والفلسفات التي تغذيها، وتمنحها الملامح والخصائص، وتنحاز بها بالتالي صوب هذا المنظور أو ذاك.

إنها ليست محايدة كالعلوم الصرفة أو التطبيقية، ومن ثم فإن تقبّلها ـ بالكامل ـ في نسيج أية ثقافة مغايرة، سيقود تلك الثقافة ـ بدرجة أو أخرى ـ ليس إلى مجرد إضافة عناصر غريبة عن المناخ الذي تتنفس فيه وتتشكل، وإنما إلى أن تفقد شيئاً فشيئاً مقوماتها الأساسية، وتضحّي بتميّزها، وتمارس هي الأخرى انحيازاً قد يؤذن بتفككها وسقوطها.

كان هذا أحد مداخل الغزو الفكري عبر القرنين الأخيرين. أن نتقبل عن الحضارة الغالبة معطياتها التي تتعامل مع الإنسان،

والتي قد تتقاطع منذ لحظات تشكلها الأولى، ليس مع المفردات الإسلامية فحسب، وإنما مع أسسها وبداهاتها.

ونحن نرى ونلمس، كيف أن المنفعية (البراغماتية) الصرفة، وتعبّد الذات، وتعبيد الآخرين، وإرغام الكشف المعرفي المحدود، على أن يكون عقيدة شمولية، والنزوع المادي ـ البيولوجي الصرف للمعرفة الإنسانية... هذه كلّها وغيرها كثير، تأخذ برقاب مساحات واسعة من علوم غربية كالنفس والاجتماع والتاريخ والاقتصاد والسياسة والقانون وغيرها من المعارف الإنسانية، وهي في معظم الأحيان تفتقد الفضيلة الخلقية، فضلاً عن الرؤية الكونية، اللتين يتحتم على المعرفة الإنسانية أن تقدمهما اليوم، أو غداً، للإنسان من أجل أن يكون النشاط المعرفي مع الإنسان وليس في مواجهته.

من هنا تبدو أهمية الدور الملقى على جامعاتنا، في ضرورة إعطائها اهتماماً أكبر للمعارف الإنسانية، التي تدرّس في العديد من الكليات والأقسام، وأن تصاغ مناهجها، أو تعاد صياغتها، بما يجعلها أكثر أصالة، وأقل استسلاماً لمعطيات المعرفة الغربية التي لا يستطيع أحد الادّعاء بأنها تجاوزت احتماليتها، وبأنها علوم منضبطة وصلت درجة اليقين المطلق.

ها هنا يتحتم على الأساتذة والباحثين ومهندسي المناهج، أن يرموا بثقلهم لتحقيق هذا الهدف العزيز، ليس على حساب المطالب العلمية والمنهجية، وإنما احتراماً لهذه المطالب والتزاماً

بها. أن يعطوا ويكشفوا ويبدؤوا هم أيضاً، وألا يكتفوا بالأخذ عن الآخر وتقليده.

وثمة ما يجب التنبيه إليه ـ ها هنا ـ وهو أن الكثيرين من طلبة العلوم الإنسانية في جامعاتنا يعانون ـ للأسف الشديد ـ مما يمكن تسميته بعقدة الإحساس بالنقص إزاء الفروع والتخصصات العلمية الصرفة أو التكنولوجية، بينما نجد هؤلاء الطلبة في جامعات العالم المتقدم يتمتعون بأعلى وتائر الثقة والطموح، والاعتقاد بأنهم يمضون للتخصّص في جوانب من أكثر فروع المعرفة البشرية أهمية وفاعلية.

والكثيرون يعرفون جيداً كيف أن العديد من قادة الغرب وساسته ومفكريه المهيمنين على مفاصل الحياة الحساسة فيه، هم من خريجي الفروع الإنسانية (التاريخ أو السياسة أو الاجتماع أو النفس أو الاقتصاد أو الإدارة... إلى آخره).

هذه مهمة أخرى يتحتم أن توليها جامعاتنا الاهتمام المطلوب، من خلال تقديم المزيد من الإغراءات بالانتماء إلى الأقسام المعنية بالمعرفة الإنسانية، ليس فقط على مستوى الضمانات المادية لخريجي هذه الأقسام، وإنما بالتأكيد على القيمتين الأدبية والعلمية لتخصصات كهذه، من أجل أن يتخرج الطالب وهو أكثر ثقة بشهادته، واعتزازاً بالعلم الذي تخصّص فيه، وقدرة ـ بالتالي ـ على المساهمة الفاعلة في إعادة بناء بلده ومجتمعه.



٢٦

حول ثقافة المقاومة...

كثرت التحديات التي تواجه الأمة كمّاً ونوعاً، وتجاوزت وضوحها وبساطتها الأولى، فازدادت تعقيداً وتركيباً، ومضت لكي تغطي مفاصل الحياة الإسلامية كافة: البيت والشارع والمدرسة والمؤسسة، وسائر مفردات المكوّن الثقافي والاجتماعي والسلوكي للمجتمع المسلم.

وتقف العولمة، بقدراتها الأسطورية على الاختراق، على رأس القائمة في سلسلة التحديات الجديدة، من حيث كونها تنطوي على سرعة فائقة في الوصول إلى الآخر، وعلى امتدادها إلى سائر مناحي الحياة... إنه الأخطبوط ذو الأرجل السبع التي تمسك أو ستمسك برقبة عالم الإسلام؛ إن لم يتخذ الإجراءات الوقائية الفاعلة لمجابهة المحذور... والمحذور هو ضياع ثقافة الأمة، وغياب هويتها، وخسرانها لدورها الكبير الذي أريد لها في الأرض.

ومع العولمة، نظام عالمي جديد ذو قطبية أحادية تريد لثقافتها أن تسود العالم، وأن تقتلع من الجذور سائر الثقافات الأخرى، تسندها وتشجعها على المضي إلى أهدافها تنظيرات

الفلاسفة وكتابات المفكرين والمؤرخين، وليست أقلّها بطبيعة الحال نظرية (نهاية التاريخ) لفرنسيس فوكوياما، و(صراع الحضارات) لصموئيل هنتنكتن.

ومن وراء التنظيرات والكتابات رؤية (هوبزية)، تعتمد منطوق القوة المجردة لتحقيق كلمة الدولة الغالبة في الأرض، بعيداً عن منظومة القيم الخلقية والدينية والإنسانية.

ومع هذا وذاك خلفيات الإنجيلية الجديدة بأدبياتها المتراكمة التي تجعل من الإسلام والثقافة الإسلامية هدفها الأوّل.

تحديات عاتية ومركّبة وشديدة التعقيد، وضعتنا عبر العقدين الأخيرين في منطقة انخفاض الضغط الذي يحمل الاستعداد المكشوف لاستقبال الأعاصير.

وإزاء ذلك كلّه، وبالإيجاز المطلوب في مقال كهذا، فإن على الأمة الإسلامية وقياداتها الفكرية، أن تتنبّه للأمر جيداً، وأن تخطط لواحدة من أكثر الفعاليات الثقافية قدرة على التشكل والصيرورة والعمل، وإلّا فهو الضياع المحتوم.

وإذا كانت الخسائر السياسية والعسكرية، وحتى الاقتصادية، تتحرك على السطح؛ فإن الخسارة الثقافية تمضي إلى العمق، إلى المكوّن الأساسي للأمة، عقيدة وفكراً وسلوكاً ورؤيةً متفرّدة للحياة والوجود، فتأتي عليها، حيث يصعب بعدها استعادة مكانتنا في العالم ودورنا في الأرض، ذلك الذي أراده لنا هذا الدين منذ

اللحظة الأولى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والبداية دائماً هي في تحصين الذات... في تشكيل منظومة ثقافية تتخذ من المقاومة هدفاً مركزياً.

في اللحظات الراهنة ليس ثمة خيار، فإما أن نقاوم، وإما أن نضيع... والمقاومة ليست حركة على السطح، بل هي جهد ثقافي يمضي إلى كل مفاصل الحياة الإسلامية، فيمنحها الثقة بالذات، ويحصّنها في الوقت نفسه إزاء كل عوامل التآكل والافتراس والدمار.

البيت والمدرسة والمؤسسة... العالم والمفكر والسياسي والأديب... الداعية والمعلم والخطيب... مدعوون جميعاً للمشاركة الفاعلة في بناء ثقافة المقاومة، كل في الثغر الذي يقف فيه.

فإذا ما تحقق ذلك بالجهد الصعب بطبيعة الحال، والذي ستستنفر له طاقات الأمة الفاعلة كافة... كان لنا أن نمضي خطوة أبعد: أن نمارس نحن مهمة اختراق الآخر... أن نبدأ نحن مسلسل التحدي، وأن نأخذ زمام المبادرة بما منحنا الله إياه من عقيدة فاعلة، وموقع متميز في الأرض، ووفرة أسطورية في المعادن والكنوز، وكثافة متزايدة في الديموغرافيا.

وهو ليس حلماً، أو أمانيَّ نسلّي بها أنفسنا، ولكنه الأمر الواقع الذي تتطلبه الأمانة العقدية التي أنيطت بنا... جنباً إلى جنب مع حاجة البشرية الملحّة إلى الخلاص.

إن المشكلة كونية، كما يقول رجاء غارودي، ولا بدّ للجواب أن يكون كونياً... والإسلام هو هذا الجواب.

ولنتذكر دائماً المبدأ الذي تؤكده قوانين الحركة التاريخية كافة: فإما أن نعبر نحن إليهم، بعقيدتنا وفكرنا ومشروعنا الحضاري، وإما أن يعبروا هم إلينا. وليس ثمة حالة وسط بين هذا وذاك.



٢٧

حول ظاهرة الترف الحجازي!!

مقولة شائعة يصعب إلغاؤها من الحساب، ويبدو أن التسليم بها تسنده حشود الروايات والوقائع، ولكن يمكن أن توضع قبالتها بعض علامات الاستفهام، أو التشكيك الأوّلي، لغرض اختبار مصداقيتها المطلقة!! فقد يفتح هذا المجالَ لاهتزاز المقولة، وتضييق مساحتها في الزمن والمكان والفاعلية، بحيث يمكن إقرارها ولكن بصيغة تختلف عما بلغته على أيدي الرواة والمؤرخين القدماء والمعاصرين.

ذلك أن معظم الروايات التي تتحدث عن الظاهرة ترد عن طريق مؤرخي الأدب وليس المؤرخين، وكثير من هذه الروايات يتمركز عند الاصفهاني في **(الأغاني)**، وهو نفسه القائل أنه يأخذ من الروايات ما يستهوي السامع، فأين إذن موقع الظاهرة في المدونات التاريخية وكتب التراجم؟ هذا إلى أن الاعتماد على (الشعر) كوثيقة تاريخية أمرٌ لا يمكن التسليم به بسهولة، إذ يظل السؤال قائماً: ما هو التاريخي وغير التاريخي؟... ما هو الموضوعي وما هو الذاتي في المعطى الشعري؟!

وبدلاً من ذلك لا بدّ من إحالة الروايات على الواقع، على التجربة المتحققة والمتواترة، فهي أشد مصداقية من الرواية المدوّنة بعد مائة سنة أو تزيد... وهذه تقول أن ما قيل من أن الأمويين سعوا إلى إلهاء أهل الحجاز بالترف والعبث والمجون، وإغراقهم بالمال، أو على الأقل أن تدفّق المال على الحجازيين، وإغراءهم بالترف، عن قصدية مسبقة أم بدونها، صَرَفَهم بالفعل عن ممارسة النشاط السياسي، وعن الإسهام في حركة المعارضة للسلطة الأموية... وهذا غير وارد بدليل أن معظم حركات المعارضة كان للحجاز نصيب فيها، بل إن بعض هذه الحركات كان الحجاز رأسها المفكر، في مكة حيناً وفي المدينة حيناً آخر، فأين نذهب بالوقائع التي تؤكد هذا التيار؟

قد يقال بأن مؤرخاً كالطبري معنيّ بالتاريخ السياسي العام، ولذا كان من الطبيعي ألّا يتعرض للحالة الاجتماعية في الحجاز أو أي إقليم آخر، ولكن هذا يسقط إذا عرفنا أن الرجل، رغم أنه يكتب تاريخاً سياسياً عاماً، فإنه يقف بين الحين والحين، لكي يؤشر على حالات اجتماعية.

ثم إن المقولة إذا كانت تنصبّ على مسألة أن الأمويين أرادوا بإتراف أهل الحجاز أن يصرفوهم عن التدخل في سياسات الدولة، فلماذا ينصرف مؤرخو الأدب إلى الشام نفسه فيقدمون لنا حشوداً من الروايات عن الترف الذي غطى الشام من أقصاه إلى أقصاه، واقتحم على دمشق أبوابها بمفرداته المعروفة، بدءاً بإنشاء

القصائد وانتهاء باللهو والشرب والمجون، مروراً بالغناء والموسيقى؟

وفي هذه الحالة، فنحن إزاء إحدى اثنتين: فإما أن مطالب النمو الاجتماعي، وازدياد الدخل والفراغ، والتنافس في المظهرية الاجتماعية، قد شمل المجتمع الإسلامي كلّه، لا فرق بين إقليم حجازي وآخر شامي أو عراقي، وفي هذ الحالة تضعف مقولة أن الأمويين تعمّدوا إغراق الحجازيين بالترف، وأن هؤلاء كانوا على استعداد ذي طابع استثنائي لهذه الهبة الأموية. وإما أن تكون الرواية (الأدبية) غير الموثقة قد بالغت في تصوير ظاهرة الترف، ليس في الحجاز وحده، وإنما في أقاليم إسلامية أخرى، الأمر الذي يجعلنا ـ بدوره ـ نتردد في قبول مسلّمة الترف الحجازي هذه، التي طالما عزف عليها، وأكدها، طه حسين، فيليب حتي... وغيرهما...

على أية حال، فإن قضية كهذه لن تُحسم بهذه السهولة، ولن تحلّ ببحث أو مجموعة بحوث تكتب تأكيداً أو تشكيكاً، ولا بدّ ـ إذن ـ من سلسلة من الاختبارات النقدية، على المستويين الداخلّي والخارجي، ولا بدّ من الأخذ بالمعايير والضوابط التي نادى بها ابن خلدون في (مقدمته)، وسبقه إلى بعضها ابن العربي في (العواصم)... وحينذاك يمكن أن تسقط حشود من الروايات التي ذهبت إلى الطرف الأقصى في تصوير الظاهرة، ولا يتبقى إلّا الرواية الأكثر صدقاً وانسجاماً مع طبيعة المجتمع الحجازي

وتوجّهاته الأساسية الجادة في تلك المرحلة التاريخية الهامة، التي لم يكن الحجازيون خلالها بأقلّ من أبناء الأقاليم الأخرى قدرة على الجدّ والبذل والعطاء في سبيل ما اعتقدوه صواباً، بغضّ النظر عن سلامة قناعاتهم، فهذه مسألة أخرى، قد نختلف فيها ويذهب كل منا بخصوصها مذهباً معيّناً. ولكن ما لا يمكن الاختلاف فيه هو أن الجدّية الحجازية التي عبّرت عن نفسها بمساهمة فعّالة بالعديد من الثورات الدموية، بل في قيادتها، لا تنسجم مع تلك المقولة الرائجة في أن القيادة الأموية قد دفعت الحجازيين دفعاً إلى أحضان الترف، وأن هؤلاء قد استناموا لمطالبه، فشغلتهم شواغله عن معارضة السلطة الأموية، فضلاً عن رفع السلاح في وجهها!!

قد يكون هناك توجّه حجازي صوب الترف، ولكن علينا أن نحاذر عن الوقوع في مظنة التعميم، فإن بقعاً محددة في نسيج مجتمع بكامله، تنبض باللهو، وتستسلم للدعة ولإغراءات الحياة ولمظاهر الفراغ؛ لا يمكن أن تنسحب لكي تغطي نسيج المجتمع كلّه، اللهم إلّا إذا تصورنا أن كل قادة الفكر والعقيدة في الحجاز كانوا شعراء غزليين كعمر بن أبي ربيعة، أو مغنين مطربين كسُريج... أو أن نتخيّل أن مكة والمدينة قد غُصت بنوادي اللعب وبيوت الفسق، كتلك التي حدثنا عنها أبو الفرج الأصفهاني، ونقلها عنه طه حسين وفيليب حتي وآخرون...

وأخيراً لا بدّ أن نتذكر ـ في هذا المجال ـ إشارة ابن

خلدون القيّمة في (**المقدمة**)؛ من أن هناك أناس يتعمّدون أن يصوّروا الخلفاء والرجالات القدوة في صورة أناس ساقطي الذمة، منغمرين حتى شحمة آذانهم بالترف، لكي يبرّروا للقاعدة الأوسع من الناس أن يتفلتوا من التزامات دينهم... وما حذّر منه من أن تشويه القيادات الإسلامية قد ينسحب إلى المجتمع الإسلامي، كما حدث بالنسبة للظاهرة الحجازية... بما في ذلك المرأة، والناس العاديون، فضلاً عن رجالات العقيدة وأبناء الصحابة والتابعين، ووضعهم ـ على أقل تقدير ـ في دائرة التساهل والتفريط في أمور دينهم الأساسية.



٢٨

حول معجزة الانتفاضة...

ابتداءً... فإن (الانتفاضة) بصيغتها هذه، وبعمقها الزمني، وبالنتائج النفسية والسياسية والاقتصادية والإعلامية التي تمخضت عنها، تعدّ واحدة من الظواهر الفريدة في التاريخ.

إن انعدام التكافؤ شبه التام بين المحتلّ والمواطن، يجعل الحدث مستحيلاً... ولكنه تحقّق فعلاً، وكان في الأسابيع والأشهر الأولى، بل ربما في السنوات المبكرة من اشتعاله، نقطة جذب مثيرة للدهشة والإعجاب لدى الخصوم والأصدقاء على السواء...

ومن أجل ألّا تتعرض الظاهرة الفريدة هذه للتآكل... من أجل ألّا يذهب بريقها، ويتسطح مغزاها، وتفقد ـ بالتالي ـ قدرتها على الإثارة وشدّ الانتباه؛ فإن الحل الوحيد الممكن هو أن تتواصل، وأن تمدّ هذا التواصل الزمني بدفعات من التصعيد والانتشار في الأرض... وأن تشعل في عصب الظاهرة نار الإيمان والاستشهاد اللذين يستمدان مفرداتهما من التعامل الجاد مع هذا الدين!!

لقد كان مفهوم التواصل، وتجاوز محنة اليأس، والخفوت والتآكل، واحدة من التحذيرات التي ترددت في جنبات القرآن

الكريم أكثر من مرة، وكانت تنادي رسول الله (ﷺ) أن عليه أن يواصل الطريق... أن يستجيب للتحدي الذي قد يفوق قدراته بكثير، والذي قد لا يتمخض في حسابات الزمن المنظور عن نتيجة حاسمة، وأن عليه أن يصبر: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الرعد: ٤٠]

لقد كانت هذه واحدة من أشد نقاط الارتكاز في صراع النبوّات ضد الطغيان، فإنها إذ منحت الحصانة ضد القهر والتراجع والإحباط، مكّنت الرسل (عليهم الصلاة والسلام) من مواصلة الجهد، ومن كسر القشرة الخارجية لمعادلات التكافؤ غير العادل بين الغالب والمغلوب.

ويوم أن تقدر الانتفاضة على تجاوز تحديات الخصم، والتي تكاد تبلغ اليوم مداها، فيما أسمته أمريكا مبدأ **«الأرض مقابل السلام»**... يوم أن تجد في هذا التحدي فرصة أشدَّ إثارة وفاعلية لرفض شامل يوازي المحاولة؛ فإنها ستجد استراتيجيتها الملائمة... أن تكون بحجم التحدي، أي أن تزداد تواصلاً وانتشاراً وتصعيداً...

وحينذاك ستعرف كيف تتوجه بالخطاب إلى دائرتها العربية والإسلامية، لأنها الصيحة الأخيرة بمواجهة الاحتواء... وستمنح في الوقت نفسه إغراءً أكثر لدعمها بالعطاء المادّي، قد يأخذ صيغة منظومة من الإجراءات تبدأ بالعطاء الطوعي، وتنتهي بترتيب مشاركة مادية زمنية، ثابتة ومجرّدة، لكل من تهمُّه قضية فلسطين،

والذي يعطي أكثر هو الذي يأخذ أكثر: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

إن ما يسمى بسلطة (الحكم المحلّي) ما هو إلّا سراب خادع لن يأتي بنتيجة أو يتمخض عن شيء... ولسوف يتفكّك بمرور الوقت، ويفقد القدرة على تقديم وعدٍ جادٍّ بغطاء للفلسطينيين يمنحهم الأمن والدولة، ويعيد القدس إليهم، ويرجع باللاجئين إلى ديارهم.

إنها مسائل وتحديات تكاد تكون مستحيلة، فما دامت السلطة نفسها من نتاج المكر الصهيوني، وما دام هؤلاء لا يريدون للدولة الفلسطينية أن تتحقق بأبسط المقومات وهي وحدة الأرض، ويرفضون رفضاً قاطعاً أن تكون القدس عاصمتها، وأن يؤذَن للاجئين بحق العودة إلى ديارهم المغتصبة، فما الذي ستفعله إذن؟ وهل تستطيع ألف سنة من التوسُّل بهم، والتمسُّح بأعتابهم، والتنازل عن المزيد من الحقوق الثابتة؛ أن تجعلهم يتنازلون ولو شبراً واحداً عن ثوابتهم غير المشروعة هذه... فما الذي ستفعله السلطة إذن؟

فليس ثمة غير الانتفاضة، واستمرارها في الأداء والتصعيد، من يرغم العدوّ على قبول الحق الفلسطيني... قصر الوقت أم طال...



٢٩

ذلك اليوم الثقيل... ولكن!

الفارق بيننا وبينهم أنهم يرون الحياة الدنيا البدء والمنتهى، وخاتمة المطاف... وأننا نراها ذرّة لا تكاد تُرى، تسبح في ملكوت الكون الكبير... مجرد خطوة عابرة إلى الأبدية...

الفارق بيننا وبينهم أنهم دنيويون إلى النخاع... مستعدون أن ينشبوا أظافرهم وأسنانهم في لحم الأرض وعظمها، من أجل امتلاكها والهيمنة عليها، وهم من أجل ذلك يتحولون إلى وحوش وضوارٍ لتمزيق أجساد الآخرين، بأي أسلوب كان، وبغضّ النظر على الإطلاق عن تناقضه مع منظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية...

والطريقة التي اغتيل بها شيخ المجاهدين **(أحمد ياسين)** تعكس بوضوح كامل هذا اللهاث المحموم وراء إغراءات دنيا لا تساوي شروى نقير!!

الشهادة عندنا رفضٌ لهذه الرؤية السافلة، واستعلاءٌ عليها، ومن أجل ذلك أصرّ الشيخ، كما حدّثني بعض الإخوة الفلسطينيين، على الذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة، رغم

تحذيرات إخوانه... يبدو أنه كان يريد أن يتوّج حياة مترعة بالدهشة، والعطاء، والفدائية، والملحمية... بما يليق بها...

وعبر تاريخنا الطويل كان «**الاستشهاد**» دائماً هو بداية الطريق وليس خاتمته... بينما تمضي قوافل الإسلاميين تجابه التحديات وتصنع الحياة... لأن الأشخاص يموتون... والله سبحانه... الله الذي ننتمي إليه ونعمل تحت خيمته... حي لا يموت...

والمقاومة الفلسطينية الإسلامية تعمل تحت خيمة الله، فهي ماضية في رسالتها سواء كان الشيخ أحمد ياسين حيّاً أم ميتاً... فالمهم أن «**الرسالة**» التي نذر نفسه لها قد تسلمتها الأيدي المتوضئة، التي عرف كيف يصوغها ويحمِّلها الأمانة... فهي على «**العهد**» الذي قطعته فلن تخذله أبداً...

ومن قبل، عندما صُدم صحابة رسول الله (ﷺ) بوفاته، بل إن بعضهم لم يصدّق النبأ، طلع عليهم أبو بكر الصديق لكي يقول ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

بهذا الحسم القرآني قدر الصديق على إقناعهم وإنزال السكينة في قلوبهم، لكي ما يلبثوا بعدها أن يواصلوا الطريق الذي شقّه لهم رسولهم القائد عليه أفضل الصلاة والسلام... فسحقوا حركة الردّة، وقضَوْا على ادّعاءات الأنبياء الكاذبين، ثم توجهوا بعدها لتنفيذ الاستراتيجية الجهادية، التي بدأها رسول الله (ﷺ)

في إسقاط القيادات البشرية الطاغية وتحرير الإنسان... فأزالوا إمبراطورية الفرس الساسانيين من الوجود، وحرّروا ديار الشام وفلسطين ومصر من قبضة البيزنطيين...

بل إن حركتهم هذه، وإصرارهم المدهش هذا، مضيا لكي يلاحقا البيزنطيين في الأناضول، ويحاصرا القسطنطينية ـ عاصمتهم ـ أكثر من مرة، حتى أذن الله بالفتح، وقيّض لها القائد العثماني الشاب محمد الفاتح لكي يحقق الهدف الكبير للآباء والأجداد، ويدخل القسطنطينية في أعقاب معركة طاحنة جرت في شوارع المدينة وأزقتها وأحيائها، واستشهد خلالها خمسون ألفاً من المسلمين!!

الأحفاد الفلسطينيون يحملون الراية نفسها، ويمضون في طريق المقاومة، وهدفهم القدس التي سبق وأن حرّرها الأجداد مرتين.. .مرة من قبضة البيزنطيين على يد عمر بن الخطاب، وأخرى من قبضة الصليبيين على يد الناصر صلاح الدين.. .وها هي المقاومة الفلسطينية تواصل الطريق لتحريرها للمرة الثالثة...

كنت في ذلك اليوم الثقيل في الدار البيضاء، ذاهباً إلى إحدى جامعاتها لإلقاء محاضرة هناك... وعند دخول الجامعة كانت ثمة حركة غير اعتيادية وتجمّع طلّابي... وهتافات وكلمات... وما لبث النبأ أن انقضّ علينا بقسوة لا ترحم... واضطررنا إلى كبت الحزن العميق في قلوبنا جميعاً، ووجدتني استبدل المحاضرة التي كنت قد أعددت لها مسبقاً بأخرى... تحدثت فيها عن هذا

الذي سبقت به سطور المقال، لكي ما ألبث أن أختمها بالقول: وسلام على الشيخ المجاهد الذي صنع أولى ملاحم القرن، وتصدّى وأبناؤه البررة لأبشع مجزرة في العصر الحديث...

سلام عليه يوم ولد، ويوم صنع المعجزة، ويوم لقي ربه راضياً مرضياً...

ويقيناً فإن الساحة الفلسطينية التي أنبتت «الشيخ» تنطوي على ألف وعد بإنبات **«أحمد ياسين»** آخر... ولن تكون جريمة العدو الكبرى هذه... خاتمة المطاف...



٣٠

رفض للتشدّد والغلوّ...

في سيل متدفق من الأحاديث يعلن رسول الله (ﷺ) رفضه القاطع للغلوّ والتشدّد، ويدعو للتيسير... إنه يعرف جيداً أنه بُعث بالحنيفية السمحاء، فلتكن الحياة الإسلامية إذن، سمحة ميسّرة بما يجعلها كفاء هذه اللافتة العريضة التي تعلن عنها.

ومن أكثر من زاوية، وعبر جملة من الممارسات والخبرات التي يتخذ منها رسول الله (ﷺ) وسائل للإيضاح، يجد المسلم نفسه قبالة تأكيد واضح لا يقبل لجاجة ولا جدلاً، في أن هذا الدين ما جاء لكي يضيّق الخناق على الناس، ويعنتهم، ويكلّفهم ما لا يطيقون، وإنما ليطلب منهم، ويضع على عواتقهم ما يناسب قدراتهم البشرية التي منحهم الله إياها، لكي ييسّر عليهم، ويطلب منهم ما يطيقون، ويفتح أمامهم السبل لحياة طيبة سهلة ميسّرة، رغم ما فيها من إلزامات وتكاليف...

بل إن هذه بالذات هي التي تمضي بعجلة الحياة وفق أكبر قدر من التوازن، والتوحّد، والائتمان، والاطمئنان، والرضا، وبدونها ستنقلب على الناس وبالاً، بما تنطوي عليه من جموح، وقلق، ولهاث،

وهمّ وغمّ، ونوازل وأحزان... إنه دين التحرير لا دين التقييد ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وليس من جرّب كمن لم يجرّب... ولقد قالها القرآن الكريم متحدثاً عن كلمات الله بأنها ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى﴾ [يونس: ٥٧]، وكل ما سيأمر به كتاب الله، كل ما سيطلبه رسول الله (ﷺ) من أتباعه، إنما هو إعانة على التحقّق بهذا (الشفاء)، وبكل من تنطوي عليه الكلمة من معانٍ ودلالات.

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (**كان رسول الله إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال ما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر. فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: إن اتقاكم وأعلمكم بالله أنا!!**).

إنه (ﷺ) يعرف جيداً ما يريده الله سبحانه من عباده، شفقة عليهم ورحمة بهم، ويعرف ـ كذلك ـ أن التقوى ليست بالضرورة إهلاكاً للنفس، بل بالعكس، التعامل معها وفق ما جُبلت عليه، وأخذها بالرفق والسماحة لكي تقدّم أقصى ما تطيق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي (ﷺ) قال: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلّا غلبه**»... الدين يسرٌ، وبهاتين الكلمتين يختصر الرسول المعلم الأمر كلّه...

وعن عائشة (رضي الله عنها)، أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، **فقال: «من هذه؟» قالت: فلانة، تذكر من صلاتها. قال: «مه،**

عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا». وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه)...

أإلى هذا الحدّ يا رسول الله؟! أن تحذّرنا من ملل الله جلّ في علاه إذا مللنا، وتطلب منا ـ بالتالي ـ أن نتعامل مع الأمور بقدرها من القصد والاعتدال حتى لا نملّ فيملّ الله... يا سبحان الله... ما هذه الرؤية المترعة بالشفافية، والتي ترسم هذه الصلة الحميمة بين الله والإنسان؟!

ثم إن الله سبحانه يريد من المسلم إدامة فاعليته الدينية في حلقاتها كافة، ولن يكون ذلك إلّا بالتعامل معها بالممكن وليس بالمستحيل.

صحيح أن الإسلام فتح الطريق لكل من يريد أن يبذل جهداً أكبر، وأن يمضي خطوة أبعد في طريق الصعود، ولكنه إدراكاً منه للتكوين البشري، رسم حدوداً دنيا هي بمثابة القاسم المشترك الأعظم للناس كافة، وقبل بها، وبذلك حقق هدفين: استئصال الإحساس بالتألّم والتقصير من النفس البشرية من جهة، وفتح الطريق ـ في الوقت نفسه ـ تطوعاً واختياراً، وليس إرغاماً وإلزاماً، لمن يريد أن يمضي قدماً إلى فوق!!

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: **(كان النبي يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا)...** إنه هنا يمنح الدعاة والعاملين تعليماً في غاية الأهمية: ألّا يأخذوا سامعيهم وطلبتهم بالجهد المتواصل، الذي لا يسمح بلحظة واحدة لالتقاط الأنفاس، أو

الترويح عن النفس، وألّا يضعوهم في دائرة السآمة، التي تفقد الإنسان القدرة على التلقي والمتابعة والتركيز.

وهو تعليم يمكن، إذا أحسنّا التعامل معه، بالنسبة المطلوبة، أن يخدمنا في أنشطتنا الإسلامية، فها هي ذي بعض الفضائيات الإسلامية تلحّ في الجدّ، ولا تترك في برامجها محطات للراحة والترفيه والاستجمام، فينصرف عنها المشاهدون، أو أنهم يتابعونها ولكن ذهنهم شارد في مكان بعيد.

ويعود رسول الله (ﷺ) (فيما رواه أنس رضي الله عنه) لكي يقول: **«يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا»**. وهو خطاب لا يدرك أبعاده الّا التربويون الذي يعرفون جيداً، أنهم سيخسرون تلامذتهم، أو في الأقل سيضيّعون جهدهم عبثاً، إن ساقوهم إلى التنفير وكلّفوهم ما لا يطيقون.

والرسول (ﷺ) لا يريد أن يحصر التيسير والسماحة في دائرة العبادة، كما قد يخيّل للبعض، إنما يمدّها إلى آفاق الحياة كافة، ويجريها في عروقها وشرايينها، لكي تربو وتنتفض وتتجاوز التيبّس والكراهية والجفاء... إنه ـ فيما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ـ ينتقل بها إلى دائرة المعاملات فيقول **«رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»**.

وكلنا يذكر، والمرارة تملأ فمه، ما يحدث في (السوق) بين الكثيرين من البائعين والمشترين: الغش والخداع، والتطفيف، والأيمان الغموسة، والسباق المحموم بين ثعالب يريد كل منها أن

يتفوق على الآخر... ويذكر في الوقت نفسه الحالات النادرة، المترعة بالسماحة، في عمليات البيع والشراء، ويذكر ما تنطوي عليه من عذوبة وإغراء!

وما يلبث الحسم أن يجيء من لدن الرسول المعلم ﷺ، فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذ قال: **(كنا إذا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة، يقول لنا: فيما استطعت)!**

منذ البدء... لحظة التأسيس الأولى للانتماء... وفي ظلال قدسية المبايعة وجلالها، كان رسول الله (ﷺ) يؤكد على الاستطاعة، ويأمر بها، كي لا يذهب المبايعون بعيداً ويشتط بهم النوى!

وهو (ﷺ) يذكّر أتباعه بأن قاعدة هذا الدين هي **(الحلال)**، والحرام هو الاستثناء، وأن ثمة مساحة كبيرة جداً مُنحت لهم كي يحيوا حياة طيبة، وأن عليهم ـ بالتالي ـ ألّا يضيّقوا واسعاً، أو يحرّموا ما أحلّ الله، بالتشديد على أنفسهم، فيقعوا في الخطيئة نفسها التي مارسها قبلهم اليهود والنصارى...

والحديث الذي يرويه ابن عمر واضح الدلالة في هذا المجال... قال قال رسول الله (ﷺ): **«لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصبْ دماً حراماً»**... وبهذا يقطع (ﷺ) الوسواس اللعين الذي يتسلّط بصورة قهرية على بعض (المتشدّدين)، ويصدّهم عن العديد من المباحات خشية أن تكون حراماً، وهي حالة تجعل الحياة الدنيا شيئاً لا يطاق من التضييق والجفاء

والتيبّس، وغياب اللمسات الإنسانية، وربما الرحمة والحنان... فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: **(جاء أعرابي النبي فقال: أتقبّلون الصبيان؟ فما نقّبلهم!! فقال النبي: أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟)**.

ومرة أخرى يعود الرسول المعلّم (ﷺ) لكي يحسم المسألة كلها بكلمات قلائل تؤكد على أن التيسير، وتجاوز الغلوّ والتشدّد، مطلوب في ممارسات المسلم كافة، ماضٍ لكي يغطي نهر الحياة على تدفقه وامتداده... عن عائشة (رضي الله عنها) قالت قال النبي (ﷺ) **«إن الله يحب الرفق في الأمر كله»**!

الله سبحانه هو الذي يحب الرفق في ممارساتنا كافة... أفنخالف أمر الله ونجهز على الرفق بسكين الغلوّ والتشدّد؟!



٣١

رياضة التسلّق على الأحزاب...

يمكن تعريف **(الانتهازية)** ببساطة بأنها: رياضة التسلّق على الأحزاب... وما أكثر الذين يمارسون هذه الرياضة في أيامنا هذه... فما الذي يصدّ الإنسان، وقد فقد الإيمان ـ بسبب ظروفنا التاريخية والمعاصرة ـ بأي مبدأ، أو الالتزام بأية قضية؛ عن ممارسة اللعبة التي تفتح أمامه بوابات الأمن والسلامة، والمنصب والمكانة، والذهب والفضة، وتجنبه الخوف والاضطهاد، والتبطّل والإهمال، والفقر والحرمان؟

وإذا كان العدد الأكبر من أبناء أمتنا، قد فقدوا فعلاً، أو بدؤوا يفقدون إيمانهم والتزامهم... فإن لنا أن نتوقع لماذا تشهد بلادنا هذا العدد المتزايد من الانتهازيين، وهذه الحشود الزاخرة من هواة التسلّق على الأحزاب الحاكمة...

وإن لنا أن نفسّر في الوقت نفسه: كيف شهدت ساحات الرشيد في بغداد، في الأوّل من مايس عام (١٩٥٩م) نصف مليون شيوعي يصفقون للزعيم ويهتفون باسمه؟ ثم لم تشهد هذه

الساحات يوم أزفت الآزفة في الثامن من شباط عام (١٩٦٣م) إلّا شراذم مبعثرة هنا وهناك؟...

وغير تجربة مايس وشباط عشرات من التجارب شهدتها عواصم أخرى في وطننا العربي على امتداده من الخليج إلى المحيط.

إن نزعة (براغماتية) مصلحية تقول أن أية ممارسة يقوم بها إنسان ما؛ يجب أن تحقق منفعة وتقود إلى مكسب ملموس... هذه النزعة تكتسح اليوم عدداً كبيراً من أبنائنا وإخواننا، بحيث إنهم لم يعودوا يتصورون أن إنساناً يمارس عملاً ما دون أن يأتيه ذلك العمل بمنفعة أو مال أو مكسب قريب...

وإنهم أحياناً أخرى يسخرون من تلك النماذج الآخذة بالانقراض، ويتهمونها بالغفلة والسذاجة، لأنها تمارس أعمالاً لا مردود لها في المدى المنظور، ويرون مثَلهم الأعلى في الرجل (العملي)؛ الذي لا يخطو خطوة الا وهو متأكد من أنها سوف لا تذهب هباء، وإلّا فإنه مستعد لتغيير مواقع أقدامه من أجل أن يحظى بنتيجة أكثر ضماناً...

فإذا ما أضفنا إلى هذا وذاك، الخطيئة الكبرى التي تمارسها الأحزاب الحاكمة في اضطهاد القلّة المستقلة، أو المعارضة، وملاحقتها، وإجاعتها، وتخويفها، وتسليط شتى صنوف التعذيب النفسي والجسدي عليها، واحتضانها ـ في مقابل هذا ـ لكل انتهازي أفّاق، أو وصوليٍّ دجال، أو منافق كذاب، ومنحه الأمن

والمنصب والمال، وحماية مستقبله وفتح الطرق العريضة أمام مطامحه وأحلامه... أدركنا كم هي قوية عاتية تلك العوامل التي تتضافر لاستقطاب العدد الأكبر من الناس، ودفعهم دفعاً لكي يكونوا انتهازيين، ولكي يمارسوا رياضة التسلّق تلك.

ما الذي يدفع إنساناً ما فقد الإيمان والإحساس بالمسؤولية، وانغمر حتى شحمة أذنيه في (مصالحه) الخاصة؛ أن يعادي أو يتميز على الأقل، عن حزب حاكم يهدده بالويل والثبور إن اختار مواقع الرفض والعداء، ويعده ـ بالمقابل ـ بمغريات الحياة الدنيا كلها إن تجاوز موقفه ذاك، وتقدّم لوضع يده في أيدي الحاكمين؟ ما الذي يصدّه عن ممارسة هواية التسلّق وهو يجد قوى الدفع والشدّ، من أسفل ومن فوق، تجذبه جذباً إلى الاندماج بالسلطة؟ والانضواء تحت مظلة حزبها الحاكم؟

إن إنساناً فقد الإيمان والمسؤولية، وانغمر حتى شحمة أذنيه في مصالحه الخاصة، لا يعدو أن يكون حشرة... نملة صغيرة... ما الذي يصدّ النملة عن أن تتسلق أي عائق، وتجتاز أية قمامة من أجل تخزين المزيد من الطعام لأيام الشتاء؟!

إننا نجد من حولنا أناساً كثيرين، كانوا ـ يوماً ـ مؤمنين متميزين، أو أنصاف مؤمنين، ينساقون بقوة لا تقهر، لممارسة هذه الرياضة اللعينة، مبررين خطيئتهم بألف ذريعة وأسلوب.

لكن المؤمن الحقيقي... المؤمن الجدير بالانتماء إلى قيادة رسول الله (ﷺ) لن ينسى أبداً كلماته المتوعدة: **«لا يكن أحدكم**

إمعة يقول أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤوا أسأت... ولكن وطِّنوا أنفسكم»... ويومها لن تستطيع أية قوة في الأرض أن تدفعه إلى ممارسة صناعة الانتهازية واحترافها، لأنها مروق صريح على تعاليم الله ورسوله.



٣٢

شهادة رجل من الغرب...

يقول المفكر والأديب الإنكليزي (روم لاندو) في كتابه **(الإسلام والغرب)**[١]: «منذ عصر النهضة، انفصل العلم في الغرب، انفصالاً أشدَّ وضوحاً، عن الدين، أو بتعبير آخر، تابع العلم سبيله غير ملتفت إلّا قليلاً إلى مطالب الأخلاق وعلم الأخلاق. ففيما كان الإنسان (في الغرب)، يكتسب معرفة متنامية أبداً بالكون الطبيعي، وسيطرة متعاظمة عليه، كان تقدمه الأخلاقي يتخلّف متلكئاً. وبتحرير العلم في القرون الوسطى من سلطان الكنيسة، لم يفصل الغرب العلم عن العقائد الدينية فحسب، بل فصله عن مفاهيم الإيمان والقيود الأخلاقية الملازمة لها أيضاً.

أما العلم الإسلامي فلم ينفصل، كما قد رأينا، عن الدين قط، والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوّته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معاً إلى الوجود، لا ليحلّا محل

---

(١) الطبعة الثانية، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ـ ١٩٧٧ م، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

ألوهية الدين... ولكن لتفسيرها عقلياً، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها. ومن هنا فليس عجيباً أنّ العلم الإسلامي لم يجرّد في أيٍّ يوم من الأيام من الصفات الإنسانية ـ كما حدث في الغرب ـ ولكنه كان دائماً في خدمة الإنسان. وبينما أكره العلم الغربي في عهد مبكر نسبياً على اتخاذ سبيل التخصّص، بحيث أمسى كل فرع من فروعه يعمل ـ كثيراً أو قليلاً ـ في عزلة، ظل العلم الإسلامي شمولياً، يجهد من أجل الوحدة، وهي وحدة يلعب فيها كل من الكون المادي والله والإنسان دوره الحاسم...

إن الحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها، هي أن المسلمين وُفقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم، من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه، وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح، لا عامل تعويق وإحباط».

هذه شهادة رجل من الغرب، يضع فيها النقاط على الحروف في مسألة علاقة العلم بالدين، فيؤكد على أن المعرفة المتنامية أبداً بالكون الطبيعي، والسيطرة المتعاظمة عليه، دفعت الغرب إلى تحطيم قيود الكنيسة المتيبّسة التي وقفت في طريقه، وانطلق، ليس فقط لفكّ الارتباط بين العلم والكنيسة، بل لتحرّره ـ كذلك ـ من مفاهيم الإيمان والقيود الأخلاقية الملازمة لها أيضاً.

وها نحن نرى اليوم، من جرّاء هذا التكاثر بالأشياء، والتنامي العلمي الأسطوري، والتفوّق التقني، والاندفاع الأهوج وراء التحقّق

بالقوة؛ كيف أن قيادات العالم الضالة ضربت مفاهيم الإيمان والقيود الأخلاقية، وراحت تبعد أكثر فأكثر عن منظومة القيم الدينية والإنسانية، مستجيبة لنداء واحد: التملّك والقوة!!

وقد ديست في هذه المعادلة الجائرة حقوق شعوب لا يحصيها عدٌّ في سياق الموجتين الاستعماريتين القديمة والجديدة... ولا يزال العالم يئن ويتوجع من جرّاء سحب يد الدين والقيم الخلقية والإنسانية، عبر التعامل مع ما يسمى بالتقدم العلمي.

أما العلم الإسلامي فلم ينفصل ـ كما يؤكد لاندو ـ عن الدين قط، والواقع أن الدين كان ملهمه وقوّته الدافعة الرئيسية، ولهذا ظلّ، وكان يمكن أن يظلّ، لولا النكسة الحضارية التي مُني بها المسلمون منذ قرون عديدة؛ ملتزماً بمنظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية، قديراً على التحقق بحياة متوازنة آمنة وسعيدة، جديرة بإنسانية الإنسان.

وهكذا فإن العلم الإسلامي لم يجرّد في أيما يوم من الأيام من الصفات الإنسانية، كما حدث في الغرب، ولكنه كان دائماً في خدمة الإنسان...

لقد كان الدين الإسلامي ـ بحق ـ عامل تسريع وإنجاح للنشاط العلمي، لا عامل تعويق وإحباط، ليس هذا فحسب، بل إنه قدر على كسر عزلة التخصص، التي تجعل العالم ينظر إلى العالم بعين عوراء، وانفتح على المنهج الشمولي، الذي يجهد من

أجل الوحدة، وهي وحدة ـ كما يقول لاندو ـ يمارس فيها كل من الله والكون المادي والإنسان دوره الحاسم.

وبدون هذه الأقطاب الثلاثة لن يكون بمقدور العلم، ولا الفلسفة، أن تحلّ إشكاليات الظاهرة الكونية والحياتية، ولسوف يدخلان متاهات ودهاليز مظلمة، كما فعلت المادية الديالكتيكية على سبيل المثال، ولن يعثرا من خلالها على المفتاح.

وها هي فلسفة العلم الأكثر حداثة: فتكنشتاين، وسوليفان، وإلكسيس كاريل، وأريك فروم، وغيرهم كثيرون؛ يؤكدون هذه الحقيقة، ويدعون في مناهجهم إلى التشبث بها، إذا أراد العلم والفلسفة أن يعثرا على الجواب.



٣٣

شيوعي من أمريكا
يكتب عن التاريخ الإسلامي...

وهذا بحث من بين ركام البحوث التاريخية التي ملأت الساحة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، يوم كان الماركسيون يصولون ويجولون في ديارنا، ويحاولون تنزيل القوالب الماركسية بالعنف والإكراه على تاريخنا، فيقعون في مطبّات ما أنزل الله بها من سلطان!

ومن عجب أن البحث الذي سأتحدث عنه في هذا المقال الموجز يكتبه دكتور قادم من أمريكا، ولا أدري كيف تحوّل هناك إلى الماركسية... والمهم أنه يبدأ بحثه بمقدمة صحافية يغلب عليها طابع الخطاب، رغم أنه بحث يفترض أن يكون علمياً لغرض نشره في مجلة علمية محكمة!! ثم ما يلبث أن يدخل الموضوع بجملة من المسلّمات الخاطئة، ولكنها في نظره معايير مقدّسة يتحتم اعتمادها في التعامل مع التاريخ الإسلامي، وليكن ما يكون...

إنه يبدأ بحثه بعدم التمييز بين الوحدات الحضارية،

واعتبارها جميعاً حضارات عصور وسطى، وهي نظرة كلاسيكية ساذجة ترفضها الدراسات الحضارية العلمية (توينبي وغيره) ممن أثبتوا بطلانها. فثمة لكل حضارة ميزات وخصائص تمنحها شخصيتها المستقلة، فضلاً عن أن الحضارة الإسلامية تتسم بميزة خاصة تفتقدها سائر الحضارات الأخرى، في اعتمادها على الوحي والوجود.

ثم ما يلبث أن يدخل في معمعان الاضطراب في الرؤية بين مبادئ الإسلام، ووقائع التاريخ الإسلامي، بين الحلول الفقهية المستمدة من الشريعة الإسلامية، وبين المعطيات الأموية والعباسية الفاسدة التي يرفضها هذا الدين ابتداء. وهو يغفل المعارضة التي قادها روّاد الفقه الإسلامي بوجه الأوضاع والسياسات الجائرة: (مالك، أبو حنيفة، الشافعي، ابن حنبل، العز بن عبد السلام، ابن تيمية... الخ)...

وهو يرى أن الإسلام لم يغيّر البنى الاقتصادية، مغفلاً الدور الكبير الذي نفذه كل من عمر بن الخطاب في العراق (في مسألة تأميم أرض السواد)، وعمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) في برنامجه الاقتصادي الذي حقق نجاحاً مدهشاً...

ثم ما يلبث أن ينساق وراء المصطلحات التي اعتمدتها الماركسية من مثل: اليمين واليسار، والبورجوازية، والبروليتاريا، والصراع الطبقي، فيوقع نفسه في جملة من المطبات الأخرى، حيث يحسب بلالاً على الخط الاشتراكي، وعثمان بن عفان على

الخط الإقطاعي، رغم أن واقعة الجدل الذي عقده الخليفة عمر بن الخطاب حول أرض السواد في العراق تؤكد العكس، حيث وقف عثمان إلى جانب التأميم، بينما مضى بلال للدعوة إلى توزيع الأرض على المقاتلين!!

ونتذكر ها هنا رأي كل من فلهاوزن في **(تاريخ الدولة العربية وسقوطها)** وبروكلمان في **(تاريخ الشعوب الإسلامية)** من أن أحد أسباب الفتنة ضد الخليفة عثمان بن عفان هي تذمّر الجند من إبقاء الأراضي بيد الدولة، وسيطرتها على الجيش، وإرسال الأموال للعاصمة، فيما يشير إلى أن أصحاب الفتنة كانوا (يمينيين) لا (يساريين)، لأنهم استهدفوا توزيع المال العام لا تأميمه!

والباحث يؤكد أكثر من مرة وحدة الصراع الطبقي دون أن يقدّم أي دليل... ذلك أن المؤشرات التاريخية تؤكد العكس، فإن القيسي، سواء كان ينتمي إلى الطبقة المترفة أم الفقيرة، كان يقف إلى جانب رفاقه القيسيين، وكذلك اليمني، دون أن يسحبهم حسّهم الطبقي للانضواء تحت الطبقة بغض النظر عن انتمائها القبلي... لقد كان تاريخ بني أمية مترعاً بالخصومات القبلية، التي كانت تمثل المحرك الأكبر للأحداث، فأين إذن الصراع الطبقي وحيثياته التاريخية؟

وهو يكيل المديح للتجارب الشيوعية في تاريخنا الإسلامي، رغم أنها تجارب ساذجة حقّقت نجاحاً جزئياً في المناطق الصحراوية وبين أقوام قبليين من البدو، وما لبثت حركة التاريخ

أن كنستها، لأنها لم تكن تنطوي على منظور حضاري، بل اعتمدت الهدم والتخريب بدلاً من الإعمار والبناء، فلو أنها كانت حركات علمية كما يدّعي الباحث، تنسجم وخط الحق والعدل لأثبتت وجودها على الأقل، بل إنها ـ على العكس ـ سرعان ما فاءت إلى الطغيان، والاستبداد، والطبقية الدينية، التي وصلت في الإسماعيلية المعاصرة إلى قيام الكادحين بوزن (الزعيم) بالذهب، في كل سنة، ومنحه إياه لكي يبتزه عبر الليالي الحمراء، بعد أن اعتصروه بدمائهم وعرقهم...

وهو يتّهم الحضارة الإسلامية وتصانيفها التاريخية بالأرستقراطية، رغم أن هذه المقولة الساذجة ترتطم ابتداء مع معطيات الدراسات الحديثة في كتب (التراجم) التي تشكل (٨٠٪) من مصادرنا التاريخية، والتي تمّ التحدّث فيها عن حشود الناس مختلفي الانتماءات الطبقية، عملوا جميعاً على بناء النهضة العلمية في تاريخ الإسلام، ها هنا حيث يبرز (علم الرجال) و (الجرح والتعديل) وسيلة موضوعية لنقد الرجال، لم يستثن أحداً فقيراً كان أم غنياً...

والباحث يضع نفسه ـ بالضرورة ـ في حالة تناقض بين فكرهِ الماركسيّ، حيث تتشكل الأوضاع الاقتصادية بعيداً عن إرادات الناس، وبين نقده للإسلام كمبدأ وقيادة، في عدم قدرته ـ كما يدّعي الباحث ـ على تغيير البنى الاقتصادية!!

والمقال ـ عموماً ـ يعكس صورة بائسة للمأساة اللاعلمية

التي تمارسَ في البحوث التي تعتمد التعميم، واقتطاع نصوص معيّنة، من بين العشرات والمئات، للاستشهاد بها على منطقية الهيكل المذهبي المرسوم سلفاً، رغم وجود ما يعارض هذا الاستشهاد ابتداء...

وإليكم واحدة من هذه المطبات من بين عشرات غيرها، تنتشر كالبثور على صفحات البحث المذكور: إنه يدين عماد الدين زنكي (٥٢١ ـ ٥٤١هـ) قاهر الصليبيين، في إجراءاته المتشددة مع الفلاحين ويعتبره (أرستقراطياً)، دون أن يكلف نفسه عناء الرجوع إلى المصادر لتبيّن الدوافع التي قادته إلى اتخاذ موقفه هذا، وعدالته ـ في الوقت نفسه ـ مع الفلاحين التي تشير إليها نصوص أخرى.

ومن بين تلك النصوص ما أورده المؤرخ ابن العديم في **(زبدة الحلب من تاريخ حلب)** من أن زنكي بلغ من السطوة والنفوذ لدى جنده أنه «إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع، ولا يجسر أحد من هيبته أن يدوس عرقاً منه، ولا يمشي فرسه فيه، ولا يجسر أحدٌ من أجناده أن يأخذ من فلاح حفنة من التبن إلّا بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية، فإن تعدى أحد صلبه»!!

وأسلوب البحث مفكك، ومنهجه تغيب فيه الرؤية العلمية الواضحة المحدّدة، ويبدو أن صاحبه لا يريد أن يبحث وفق المنهج الموضوعي القائم على استقراء الوقائع جميعاً لاستخلاص القيم

والمبادئ والمؤشرات، وإنما هو يسعى إلى رسم أو تصميم هيكل مسبق، ثم يتنقل بعد ذلك عبر مساحات التاريخ الواسعة، لكي يقتطع من حشود الشواهد عدداً محدداً ينسجم ووجهة نظره.

وهذه الوجهة ليست مبتكرة ولا أصيلة، لكي نقول أن للمؤلف قدرة على الابتكار والإبداع، وإنما هي تكرار سمج، ونقل غير منقح لعدد من كتّاب المحاولات الماركسية في تاريخنا (من أمثال بندلي جوزي وأحمد عباس صالح ومحمود إسماعيل... الخ)...

وهي ـ باختصارَ شديد ـ طريقة رخيصة ومجانية وغير علمية، لأن بإمكان أي إنسان أن يفترض ـ مقدماً ـ مقولة من المقولات، ثم يجيء إلى مصادر التاريخ، وهي تضم معطيات وروايات في شتى الاتجاهات، فيقبس منها ما يوافق مقولته ويرفض ما يخالفها، حتى لو شكّل المساحة الأوسع.

ويبدو لذي النظرة الجزئية أن المقولة منطقية وصحيحة، بدليل ما يلحق بها من وقائع ونصوص وتوثيقات، إلّا أن النظرة الأشمل تبيّن خطأ هذا الأسلوب، وجزئيته، ولا علميته، وعدم إعطائه صورة موضوعية عادلة، عن حضارة أو تجربة ما، وإنما هو الضرب على غير هدى!!





٣٤

صراع أم حوار؟

بعيداً عن أية صيغة من صيغ التقبّل أو ردّ الفعل لعبارة (كبلنج) المستهلكة: «**الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا**»، ولنظرية (صموئيل هنتنكتن) في (صراع الحضارات)، فالأغلب أننا نتفق على أن هناك عمقاً تاريخياً لصراع الغرب مع الشرق، يبدأ بمحاولات اليونان زمن الإسكندر المقدوني للتفرّد بحكم العالم، وينتهي بما يسمى بالنظام العالمي الجديد، حيث تمسك أمريكا برقبة العالم، مروراً بالرومان والبيزنطيين ـ إلى حدّ ما ـ والكنيسة الكاثوليكية في عصر الحروب الصليبية، والإسبان والبرتغاليين فيما يعرف بمحاولة الالتفاف الغربي، والإنكليز والفرنسيين والهولنديين في موجة الاستعمار القديم الأولى، والألمان والطليان زمن الاندفاعات الشوفينية، وصولاً إلى الروس تحت مظلة الأممية الشيوعية، والأمريكان تحت غطاء النظام العالمي الجديد.

هذه الحلقات الأساسية للهجوم الغربي، ما كانت تنطوي ـ في معظم الأحيان ـ على بعدٍ واحد، وإنما كانت تتشكل بفعل عوامل عدة، بعضها ديني، وبعضها اقتصادي، وبعضها استراتيجي، لكن

القاسم المشترك الذي يجمعها هو البعد الحضاري (القارّي)، الذي كان يضع المتصارعين متميزين أحدهما قبالة الآخر، بدرجة قد تبهت وتغيب حيناً، وقد تتضح وتبرز وتزداد خطوطها عمقاً في أغلب الأحيان.

بمعنى أن الصراع كان تاريخياً، تحكمه قوانين تراكم الخبرة، والتأثير، لكي تجعل النظام العالمي المراد تشكلّه في اللحظات الراهنة، حصيلة كل الحلقات السابقة في صراع الغرب مع الشرق، وأن الشرق، وعالم الإسلام على وجه الخصوص، يخضع الآن لضغط حضاري عمره عشرات القرون، وينطوي على كل قوى الدفع الديني والاقتصادي والاستراتيجي، وحتى النفسي... وأن عليه ـ بالتالي ـ أن يكون على بيّنة من الحجم الشامل للصراع، وأن يستجيش كل قدراته المتآكلة، وكل ما يملكه من خزين مادّي ومعنوي، لمجابهة التحدّي، قبل أن ينطوي في كيان الغالب، ويغيب هناك، ربما، لقرون لا يعلم مداها إلّا الله!!

إنه ـ إذا أردنا الحق ـ استعمار جديد يحمل في رحمه كل مفردات الغزوات الاستعمارية السابقة، ويزيد عليها... وبكل تأكيد فإن «القوّة» عندما تتعرى عن كل القيم الإنسانية العادلة والنبيلة، وعندما تتفرّد في الساحة، فإنه ليس ثمة ما يمنعها من ممارسة (الاستعمار)، فثمة ألف صيغة لهذه الممارسة التي كان القوي فيها دائماً يأكل الضعيف.

وبدلاً من أن نصبّ لومنا على الظاهرة؛ فإن علينا أن نتحقق

بالقدرة على المجابهة، بالحصانة التي تجعل (الآخر) يتردّد عشرين مرة قبل أن يفكر بإبادتنا. لقد أسدى القرآن الكريم إلينا النصح أكثر من مرة، ونادانا رسول الله (ﷺ) مراراً... من أجل تحقّق كهذا، فلم نسمع النداء!!

ولكن هذا ليس هو الوجه الوحيد للصورة، ذلك أن ما يقوله شاعر مثل (كبلنج)، وفيلسوف مثل (صموئيل هنتنكتن) ليس قدراً محتوماً... فالغرب والشرق التقيا أكثر من مرة... حضارياً يمكن أن نتذكر التجربة (الهلينية) التي امتزجت في إطارها معطيات اليونان بتأثيرات الشعوب المطلة على البحر المتوسط... ويمكن أن نتذكر حالة معاكسة هي تلك التي شهدتها الساحة الأندلسية، حيث قدرت الحضارة الإسلامية أن تؤثر في الثقافات الغربية المحلية، وتتأثر بها في الوقت نفسه، فيكون ذلك اللقاء الخصب المتنوّع الذي يعرفه الجميع.

والإسلام نفسه، في توجهه الانتشاري إلى العالم كلّه، وبحكم إنسانيته التي لا مكان فيها لحواجز العرق والطبقة واللون والجغرافيا، قدير ـ في أية لحظة ـ على تنفيذ لقاء كهذا... على اختراق المتاريس القارية، وحتى الحضارية، لكي يتوجه بالخطاب إلى الإنسان أياً كان موقعه في الزمن والمكان.

والآن، فإن انتماء نماذج غربية ذات وتائر عقلية وثقافية عالية، إلى هذا الدين، قادمة من رحم البيئة الغربية، ليعطينا شاهداً آخر على عدم التسليم بالمقولة إياها!!

٣٥

ضرورات الفقه الحضاري...

الفقه الحضاري يعنى باستقصاء وتحليل قوانين الحركة التاريخية، أو سنن الله العاملة في التاريخ، تلك التي ترفع الأمم والجماعات والدول وتنشئ الحضارات، أو تخفضها، وتصيبها بالتفكك، وتقودها إلى الأفول والانهيار.

ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى فقه كهذا، لإضاءة مسائل وإشكاليات عقدية وتاريخية ومعاصرة، وتقديم أجوبة أكثر دقة بخصوصها.

والقرآن الكريم وسنة الرسول (ﷺ)، فضلاً عن تراثنا الفكري، ومعطيات فلاسفة ومفكري التاريخ ودارسي الحضارات المحدثين، يتقدمون جميعاً بالإجابات المطلوبة، إذا عرفنا كيف نحسن التقاطها وإدراكها.

هناك ـ على سبيل المثال ـ ضرورة إعادة النظر في الدراسات التقليدية المعنية بالسيرة النبوية والتي جعلتها، أو اختزلتها بعبارة أدق، في عرض عسكري لغزوات رسول الله (ﷺ) والتحوّل إلى التعامل معها كمشروع حضاري تؤكده معطيات السيرة نفسها...

هناك ـ أيضاً ـ ضرورة إعادة النظر في مناهج دراسة وتدريس مادة (حضارة الإسلام) في المعاهد والجامعات، وتجاوز المنهج التفكيكي المعتمد منذ أكثر من قرن من الزمن، إلى منهج شمولي يعرف كيف يتابع «شخصانية» هذه الحضارة، وحلقات نشوئها ونموّها وازدهارها، وعوامل أفولها وانهيارها في نهاية الأمر.

هناك التحديات الأكثر حداثة كنظرِية (نهاية التاريخ) لفرنسيس فوكوياما، ونظرية (صراع الحضارات) لصموئيل هنتنكتن، ومعطيات النظام العالمي الجديد، أحادي القطبية.

وهناك تحديات المشاركة الإسلامية في مستقبل العالم، وإعادة صياغة المصير البشري، ودور الحضارة الإسلامية ـ في حالة انبعاثها ـ في هذه المشاركة، ومساحتها الممكنة.

وهناك ما يطلق عليه اليوم (المشروع الحضاري الإسلامي البديل) الذي يتحتم على الأمة الإسلامية أن تنسج حيثياته من الأساسيات العقدية والتشريعية في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وسوابق الأجداد والآباء، وأن تؤكد حضورها قبالة انهيار جلّ المذاهب والنظم الشمولية والوضعية التي استعبدت الإنسان في العالم، منذ انحراف الأديان الكبرى وعزلها عن أداء مهمتها...

وثمة قبل هذا كله، ضرورة القيام بمسح شامل لمنظومة الآيات والمقاطع القرآنية المعنية بقوانين الحركة التاريخية أو سنن الله العاملة في التاريخ، وتفسيرها، من أجل إغناء وإضاءة الدراسات الحضارية الخاصة بالموضوع.

هذه المسائل جميعاً تتطلب فقهاً حضارياً، أي وعياً بقوانين الحركة التاريخية، وبالتالي فإن على مثقفينا عامة، وطلبة الجامعات في عالم الإسلام كله بشكل خاص، والمعنيين بالتخصصات التاريخية والحضارية على وجه التحديد؛ أن يولوا اهتماماً أكبر لهذه المطالب والتحديات، وألّا يكتفوا بمعارف تاريخية وحضارية مفككة، يتلقونها أو يتعاملون معها على عجل، ويتخرجون، مكتفين بالشهادات وحدها، دون فهم عميق لما يتحتم أن يكونوا على وعي به في سياق تخصصهم المهم هذا.

إن الفقه الحضاري والحالة هذه يغدو ضرورة من الضرورات القصوى لحملة الهمّ الإسلامي في العالم المعاصر، من أجل أن يتحركوا وهم على وعي تام ورؤية نافذة لخرائط العمل، في زمن اختلط فيه الحابل بالنابل، وتداخلت التحديات، وتقوّى فيه القوي على الضعيف، وسدّت المسالك أمام المبادئ والنظم الوضعية، وازداد ضلال الأديان المحرّفة... حتى غدا العالم بأمسّ الحاجة إلى مشروع كبير ينقذه من الورطة التي يتخبط فيها ويقوده إلى الصراط...

ومرة أخرى، وكما يقول روجيه غارودي في (وعود الإسلام): «إن مشكلة العالم المعاصر كونية ولا بدّ للجواب أن يكون كونياً، والإسلام هو هذا الجواب».



٣٦

عصر المسح والإلغاء...

زعماء الصين الشعبية يمسحون (ماو) القائد والمؤسّس والمنظّر. خروتشوف يمسح ستالين، بريجنيف يمسح خروتشوف، غورباتشوف يمسح بريجنيف... السادات يمسح ناصر وهذا يمسح الملك فاروق، وحسني مبارك يمسح السادات، وثورة الشعب المصري تمسح حسني مبارك... عبد السلام عارف يمسح الملك فيصل الثاني، وعبد الكريم قاسم بمسح عبد السلام عارف، وعارف يمسح عبد الكريم قاسم، وأحمد حسن البكر يمسح عبد الرحمن عارف، وصدام حسين يمسح البكر، والاحتلال الأمريكي للعراق يمسح صدام... زين العابدين بن علي يمسح بورقيبة، وثورة الشعب التونسي تمسح زين العابدين...

ولو شئنا أن نمضي في متابعة أعمال (المسح) في العالم المتقدم والمتخلف لطال بنا المقام... والطريق لا زال مفتوحاً، وسيظل مفتوحاً للمزيد من أعمال مسح الزعماء الجدد لمن سبقوهم، أو الشعوب لطغاتهم... ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: ألا من يعتبر؟!

ذلك أن العديد من حكام المسلمين والعرب عبر القرن الأخير ما كانوا يخدمون إلّا أنفسهم وحاشيتهم، ويضعون مصلحة الأمة أو الشعب في الخط العاشر... وهم - على ما يبدو - أصناف وليسوا صنفاً واحداً: فهنالك الحكام الذين يخدمون مصالحهم... والحكام الذين يخدمون ملذّاتهم... والحكام الذين يخدمون سلالتهم، والحكام الذين يخدمون مجدهم الشخصي، والحكام الذين يخدمون قبائلهم وعشائرهم، والحكام الذين يخدمون أحزابهم، والحكام الذين يخدمون طوائفهم، والحكام الذين يخدمون أسيادهم!! وهلّم جرّاً...

أصناف شتى، ولكن يجمعهم أنهم يخدمون كل شيء إلّا شعوبهم وأمتهم... وتلك هي المفارقة الكبرى في تاريخنا المعاصر، بل تلك هي مأساتنا التي تجرّعنا مرارتها على مدى عقود عديدة ولا نزال...

ومن عجب أنك تجد بعضهم يعلّقون فوق رؤوسهم، على الكراسي التي يتشبثون جيداً بمقبضها كي لا ينفلت من بين أيديهم... تلك العبارة المعروفة التي تقول: «**لو دامت لغيرك ما وصلت إليك**»!! ولكن يبدو أنهم لم يقرؤوها، أو يحاولوا قراءتها، لكي يعرفوا أن بقاءهم في السلطة أمرٌ مستحيل، وأن عبارة «جئنا لنبقى» دونه خرط القتاد... ومع ذلك فهم يعتقدون حتى النخاع باستمرارية بقائهم، ليس من خلال أشخاصهم فحسب، بل من خلال أبنائهم وذراريهم إلى يوم الحساب...

ولذا نرى حكاماً من أمثال حسني مبارك، أو زين العابدين بن علي، أو معمرّ القذّافي، يسعون مسبقاً لتوظيف كل قدرات الشعب المنكوب، وأمواله، ومؤسساته، لضمان استمرارية حكمهم من خلال أبنائهم... وهم من أجل تحقيق هذا الهدف يسعون لوضع الجيش وقوى الأمن، ومقدّرات الحزب الحاكم، في جيوبهم من أجل تسخيرها لهذا الهدف المرفوض «ديمقراطياً» إذا أخذنا بمنطق الديمقراطيات... ومرفوض شورياً إذا أخذنا بمنطق الشورى التي جاء بها هذا الدين، وأكد عليها، ونفّذها عبر عصر الراشدين (رضي الله عنهم)...

والإسلام لا يقف عند هذا الحدّ، بل إنه يضع شبكة من المعايير والضوابط التي تلزم الحاكم بخدمة شعبه وأمته والجماهير التي أولته ثقتها، وبأقصى وتائر التجرّد عن المصلحة والمنفعة والأسرة، وكل صنوف الإغراء التي لوت أعناق حكامنا، ولكنها لم تقدر على لوي أعناق الصحابة الكرام الذين قدّموا المثل الأعلى في تجرّد الحاكم، ونبله في التعامل مع السلطة والمال العام، ومع الشعب الذي سلّمهم زمامها.

فأين هؤلاء من حكامنا المعاصرين، الذين يتحركون على الطرف النقيض الآخر، فيحتلبون السلطة لأنفسهم وذراريهم؟!

إن الروائي اللاتيني المعروف (استورياس) يتساءل في روايته (السيّد الرئيس): «أي حق يرغم العسكريين على الولاء لنظم لا تدين بالولاء لأي قيم ولا للعالم ولا للأمة؟» (ص ٢١٨).

وبما أن العديد من حكامنا هم من عشاق الانقلابات العسكرية، التي كانت أمريكا والمعسكر الغربي، يوماً، تدعمها وتموّلها وتقودها إلى السلطة، فلنا نحن أيضاً أن نتساءل: ما الذي يدفع هؤلاء الحكام إلى الولاء لنظم لا تدين بالولاء لأي قيم، ولا للعالم، ولا للأمة؟!

والجواب واضح كحدّ السكين... إنهم أولئك الذين جاؤوا بهم إلى السلطان، وفرضوهم فرضاً على الشعوب، بعد أن أجروا جملة من الدراسات النفسية والاجتماعية عليهم، وعرفوا جيداً طبيعة ردود أفعالهم على كل فعل يجابهوه، ومن ثم وقع اختيارهم على العناصر التي لا تدين لقيم الأمة، وإنما تتعبد مصالحها الخاصة، واستمراريتها في السلطة، وخضوعها المعلن أو المغطى لسادتها الكبار...

من أجل ذلك، وجدنا العديد من هؤلاء «الصنائع» من تلك النماذج الشاذة، غير السويّة، والتي تعاني من ألف مركب للنقص يدفعها إلى التعويض بفرض هيمنة ديكتاتورية قاسية على شعوبها، لا تكاد تجد فيها ممرّاً، ولو صغيراً، للتنفس والحياة الطبيعية السويّة!!

لقد عاشت أجيالنا العربية المعاصرة على الوهم والخداع، حيث لم تكن لعبة الانقلابات قد تكشّفت أبعادها بعد... ومارست لعبة (السلّم والحيّة) لعشرات السنين... منذ خديعة ثورة

(١٩٥٢م)، مروراً بالانتصار الكاذب على العدوان الثلاثي، وحتى نهاية العقد الأوّل من القرن الجديد.

ولكن، وكما يقول المثل: فإن لكل شيء نهاية... وها هو عام (٢٠١١م) يشهد الانفجار الشعبي الكبير ضد الطواغيت والأصنام، الذين ظنوا أن حصونهم مانعتهم من أمر الله... رغم أن أمر الله ماضٍ إلى غايته بأذرع الجماهير، التي آن لها أن تحيا الحياة التي تريدها هي، وليست تلك التي ابتزها فراعنة العصر الحديث...

والحق أن الذي يحكم العالم ليس حسني مبارك، ولا زين العابدين بن علي، ولا ماوتسي تونغ، ولا بوش... فالذي يحكمه هو الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

لا معقِّب لحكمه... وتلك هي كلمة الفصل في مصائر الطواغيت والأرباب!!



٣٧

على أعتاب قرن جديد...

ونحن ندلف إلى قرن جديد، فإنه يتحتم على أمتنا أن تتعلم من القرن الذي انقضى... وإن أمة لا «تعلّمها» تجربة قرن كامل أحرى ألّا تكون...

إن علينا أن نراجع حساباتنا عبر ذلك القرن المترع بالوقائع والأحداث، والذي تأرجح فيه المسلمون بين الهزائم والانتصارات... وكان الخط الواضح... النتيجة الأكثر ثقلاً في مجرى الصراع الطويل، هو كثرة الهزائم بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخنا...

وحتى الانتصارات التي كانت تنتزع من فكي الخصم بكثير من الدم والأشلاء، كانت تتميّع بعد فترة تطول أو تقصر، وتفقد بريقها، كانت تُمتص أو تُحتوى، وأحياناً أخرى كانت تؤول إلى خسران جديد... وقليلة جداً هي الانتصارات التي ظلّت متألقة، تحمل ديمومتها وقدرتها على الفعل عبر السنين...

إن الصراع لم يكن مكافئاً... كان الخصم يحقق قفزاته المذهلة في مجالات المدنية كافة، وفي «التقنية» والسلاح على وجه الخصوص... وكنا نحن نستيقظ ونفرك أعيننا في ذيول ليل طويل؛

لم يكن الإسلام وقيمه الفاعلة قد أضاءت جنباته إلّا قليلاً... وقد جاءت الضربات في معظمها سريعة، مفاجئة، متلاحقة، من ملاكم عنيد ذي دربة ومران، يضع قفازاً محكماً في قبضته، ويلبس قناعاً سميكاً في وجهه... وكنا نحن أشبه بالملاكم الذي يقاتل على المكشوف لا دربة ولا مراناً... ولا أدوات نتقي بها سيل اللكمات...

لقد شهد القرن الماضي أنماطاً مختلفة من الهجوم الاستعماري والضغوط الحضارية، كما شهد ردوداً مختلفة عجز كثير منها ـ رغم إخلاصه واندفاعه ـ عن تحقيق الاستجابة الناجحة إزاء التحديات... والاستجابة ليست مجرد تضحية واندفاع واستماتة في الذود عن الحياض والشرف والذات... إنها فضلاً عن هذا فكر نيّر بصير، وإيمان واعٍ عميق، واعتماد مبرمج للقدرات، وتخطيط شامل للمجابهة على كل المستويات... ولم نكن نملك من هذا كلّه سوى الشيء القليل... ومن ثم كان ما كان مما نعرفه جميعاً...

وثمة إرهاصات في العودة كرّة أخرى إلى أنماط عتيقة من الهجوم الاستعماري، فضلاً عن استمرار معارك الغزو الاستراتيجي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وتطوّر أسلحتها وازديادها خطورة... وها هنا يتحتم اعتماد صيغ أكثر فاعلية في المجابهة التي يبدو أنها ستكون مصيرية.

والصهيونية على وجه الخصوص، ستتحرك لتأكيد انتصاراتها السابقة، وتوسيعها باتجاه حلمها التاريخي. وهي بعد أن ربحت

المعركة باستخدام آلة الحرب أكثر من مرة، تريد أن تربح أكثر باستخدام أداة السلام... وذلك بالدخول من الثغرة الكبيرة والخطيرة التي أحدثتها المحاولة السلمية في جدار الرفض المتهرئ...

والحديث عن القرن الجديد يتضمن تحليل ما هو كائن وما يجب أن يكون...

فعلى المستوى الأوّل، يصعب ـ إذا أردنا الحق ـ تخمين المتغيرات التي سيشهدها القرن على امتداده الفسيح... إن بعض ما هو واقع سيستمر ولا ريب، وبعضه الآخر سيطويه الزمن سريعاً، أو على مكث، ومن خلال معارك البقاء والفناء يتحتم أن نتحقق بالتعلم من التجربة، وألّا نسمح للتاريخ بأن يتحكم فينا، بل أن نتحكم نحن في حركته وصيرورته.

أما على المستوى الثاني، فإن الإنسان قد يحلم أحياناً، ولكن أمة تعيش تاريخها وتدور عجلة زمنها دون أحلام، أمة لن يكون لها وزن في مجرى الفعل والتحقّق التاريخيين.

إن الإنسان ليحلم في اليوم الذي يشهد فيه القرن الجديد تقارباً أعمق بين دول الأمة الإسلامية وشعوبها وكياناتها السياسية، وزوالاً أسرع للحدود التي رسمتها مؤتمرات (الكبار)، ولا تزال، على الموائد المستديرة التي تعقد بليل، وظلت ـ ولا تزال ـ تلهب ظهر أمتنا بسياطها الكاوية...

وقد آن الأوان لاتخاذ موقف صارم قبل أن تصبح الحدود

المصطنعة مسلّمة تاريخية لا تقبل نقضاً ولا جدلاً... إن الحسّ الوحدوي يجب أن يعود من جديد قوياً متدفقاً هدّاراً، يلهب الأفكار والأرواح والعواطف، ويشتعل فتيله في الأعماق، تماماً كما بدأ أول مرة. كما أنه يتحتم أن نستعيد على مستوى وعينا اليومي هذا الشعار القرآني المؤثر: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]... يجب أن يغدو التوجه الوحدوي خبزنا اليومي وقوتنا، الذي إن لم نتناوله في الوقت المناسب هلكنا مسغبة وجوعاً...

وثمة (التسلّح) الذي يتحتم أن يكون على مستوى العصر لتحقيق نوع من التوازن في القوى، ومن أجل أن يكون في مستوى العصر يتحتم أن يتحقق على مستوى دعوة القرآن الحاسمة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

إن فائض المال العربي، وما أكثره... وما أكثر ما ينصب في مظانّ لا تستحق أن يرمى فيها بفلس واحد... وما أكثر ما يذهب لأيدٍ تحوّله إلى سلاح فتاك تقتلنا به... هذا الفائض من المال يمكن أن يصنع المستحيل في مجال تقنية السلاح... بدءاً من الرصاصة وانتهاء بالقنبلة النووية... إن دولاً أهون منا مكانة وأقل عدداً، تصنع اليوم سلاحها بأيديها، وأنجزت أو ستنجز القنبلة الذرية، فما لنا نحن نظل نتسوّل السلاح من أسواق الغرب، رغم المقادير الباهظة من الأموال التي يُشترى بها، دون أن نحظى من ساسة السلاح إلّا بالقليل القليل، بعد كدّ وتملّق... إذ السلاح

يرتبط تسويقه باستراتيجيات الصراع الدولي والمواقف السياسية للمصدّرين...

القرن الجديد يتحتم أن يبدأ هذه البداية الجادة، فيضع المسؤولون جلّ همِّهم في أن يكونوا أمة مسلّحة كما أراد لها الله سبحانه أن تكون...

وقد جعلنا الله سبحانه ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ومنحنا جغرافية ليست كالجغرافيات، وثروات هائلة ليست كالثروات... وليس النفط فارسها الوحيد... وإذا كنا في القرن المنصرم نعتمدها ـ حيناً ـ لمجرد حصار اقتصادي موقوت، أو تخويف سياسي مهزوز، ونستخدمها ـ أحياناً ـ لترميم أو إسناد اقتصاديات الدول الكبرى التي جلدتنا وتجلدنا ليل نهار... فقد آن لنا أن نحقق تحوّلاً نوعياً في الإفادة من هذا السلاح الخطير، وأن نسعى جادين مخلصين لكي نقصم به ظهر الصهيونية والاستعمار... ولنتذكر، والذكرى تنفع المؤمنين، أن لو كان هذا النفط الهائل، أو جزء منه، بأيدي يهود، ماذا كانوا فاعلين بنا وبغيرنا ممن تسميهم بروتوكولاتهم الأمميين؟!

لقد غدا النفط عصب المدنية المعاصرة وشريانها الذي يمنحها الدم فتواصل الحياة، أو يحرمها إياه فتتيبس وتصفرّ وتكون حطاماً... هو الأداة الفاعلة التي ترفع وتضع وتقيم وتقعد... وإن الميل التاريخي التقليدي للعالم المتقدم صوب الصهيونية في كل مجابهة بينها وبين عالم الإسلام يجب أن يوقف بسلاح

النفط... هم أناس لا يعرفون مبادئ ولا قيماً، وقيادات لا ترى غير مصالحها... وسياسات تنحني وتدور مع الدينار والدولار... وزعامات تركع وتسجد لمقتضيات التكاثر الذي لا يعرف شبعاً... فلنأتهم من مكامن جحورهم... من نقاط الضعف في تكوينهم، لكي نريهم الحق حقاً والباطل باطلاً، بعد ما عجز حوار العقائد والقيم، وبداهات المطالب الإنسانية؛ عن إقناعهم بالخطيئة التي مارسوها طويلاً ولا يزالون...

إن ضمّ القدس هو كأس الختام المرير للقرن المنصرم، تريد الصهيونية وظهيرها الاستعمار بصيغه المختلفة، أن تجرّعنا إياه احتفالاً بمقدم القرن الجديد... فلنجرب مرة واحدة ألّا نشرب الكؤوس التي يقدمها لنا أولاد الأفاعي وأذنابهم في دول العالم شرقاً وغرباً... لنجرب مرة واحدة، ما دمنا نملك ناصية هذا السلاح الخطير... النفط... وما أدرانا؟ فقد يأتي يوم نجرّد فيه من هذا السلاح، ولات حين مندم... قد تجفُّ الينابيع والآبار... قد تتحول المدنية المتمخضة إلى مصادر أخرى للطاقة... وقد تتفق زعامات العالم المتقدم، عبر جلسة سرية حول مائدة مستديرة أخرى، على اقتحام بلادنا لوضع اليد بقوة السلاح ـ ضماناً للوفاق ومصالحه العليا ـ على مصادر النفط... قد!!

والسلاح والثروة لا يصنعان شيئاً إن لم توجههما استراتيجية عمل ذكي واعٍ بصير يعرف هدفه جيداً، وبطانة روحية إيمانية تمنحها القوة الضاربة التي تحقق المستحيلات، وتصنع التاريخ...

فعبر التاريخ كلّه، ما كان لغير الإيمان الحارّ الذي يكوي بجمراته المشتعلة القلوب والعقول والأرواح، ويحرق بناره المتألقة الدنس والصغائر، ويفرز بلهيبه المصفى الذهب من التراب، أن يجتاز بالأمم والشعوب الحواجز والعوائق والمتاريس، وأن يقودها إلى الأهداف الكبيرة، والآمال العريضة... وإن في تجارب تاريخنا نحن، وهو على مرأى منا ومسمع، مصداق هذه المقولة، أو البديهية إذا أردنا التعبير الدقيق.

لقد ألغينا إمبراطوريات بكاملها من الحساب، وأسقطنا عروشاً وتيجاناً في الوحل، ومرّغنا أنوفاً استعلت على الله والجماهير قروناً، في الطين والتراب، وغيّرنا خرائط العالم في مشارق الأرض ومغاربها، لصالح الإنسان... واختزلنا حيثيات الزمن والمكان... وقد كان ذلك كله بالإيمان الذي يكوي... وبالرؤية الواضحة التي لا غبش فيها... وباستراتيجية عمل ذكي واعٍ بصير يرفع في مواجهة العالم كله، شعاره الأبدي «**جئنا... لنخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده**»!!

فبدون الفكر الواعي والإيمان العميق، لا يرجى من السلاح والثروة خيراً كثيراً، ولقد جربنا في القرن المنصرم أن نستخدم سلاحاً لا إيمان معه، وأن ننفق ثروات طائلة لا تستهدي بفكر... وكلنا نعرف ماذا كانت النتيجة؟!

إن وجهة العالم الإسلامي في القرن الجديد هي التي ستحدّد

مسيرة القرون التي ستليه، لأنه سيكون ـ والحق يقال ـ قرن صياغة الخرائط العقائدية والسياسية والاقتصادية والثقافية، طويلة المدى، ونحن يومها بين اثنتين لا ثالثة لهما: إما المزيد من التبعثر والتشتت، والضعف والتمزّق، والفوضى والارتجال، وافتقاد الرؤية العقدية، وضياع العمق الإيماني... وإما عودة واعية إلى النبع والجذور، حيث التوحد والتخطيط والاستراتيجية الواعية، والإيمان الذي يفجّر الطاقات، ويضرب الحواجز، ويصنع الأهداف العظيمة:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤٠].



٣٨

على هامش الرسوم الكاريكاتيرية...

هذه ليست ولا آخر مرة يولغ فيها الغربيون بدمائنا ومقدّساتنا، ويرمون بسهام الحقد الأسود كتابنا ونبيّنا عليه أفضل الصلاة والسلام.

منذ أن جاؤوا بحملاتهم التي يسمونها هم (**الصليبية**)، والتي يحاول بعض كتابنا السذّج أن ينزعوا عنها صفتها هذه، مروراً بصيحة (بوش) في أعقاب الحادي عشر من أيلول: «**إنها حرب صليبية**»، والتي حاولت بطانته، أن تغطي عليها لسبب أو آخر... وصولاً إلى الرسوم الكاريكاتيرية التي نشرتها الصحيفة الدانيماركية المشؤومة عن رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

وبين هذا وذاك يتذكر المسلمون، والمرارة تتسرب في عروقهم، عشرات من المواقف الفاجرة في ديار الغرب إزاء ديننا وعقيدتنا وقرآننا ونبيّنا وتاريخنا وحضارتنا: الأفلام السينمائية... المسلسلات التلفازية... الكتب والصحف والمجلات... بل وحتى البارات وأماكن الفجور التي حملت لافتات «مكة»، والجوارب التي تلبس بالأرجل، والملابس الداخلية التي نسجت على حافاتها آيات من القرآن الكريم.

وليس غريباً أن تعيد صحيفة فرنسية الصور الكاريكاتيرية نفسها متحدية مشاعر المسلمين، ليس فقط من أجل التضامن مع الحكومة الدانيماركية، وفتح جبهة جديدة ضد المسلمين لتخفيف الضغط الذي آذى اقتصادياتها، وإنما إمعاناً في تفعيل الخطاب الصليبي ضد عالم الإسلام، وهي ظاهراً تذكّرنا بما كان يحدث في أوربا زمن الحروب الصليبية، حيث كان ملوك أوربا وأباطرتها وأمراؤها وفرسانها يتداعون إلى بعضهم لتنفيذ غزوة قارية جديدة للشرق الإسلامي كلما مُني أصحابهم هناك بهزيمة قاسية.

ومن عجب أن هذا كله يجري تحت شعار حرية الرأي، وإصرار القيادات الغربية على حمايته، رغم أن هذه القيادات وعلى رأسها أمريكا، أنشأت مراكز لملاحقة كل من تسوّل له نفسه أن ينشر بحثاً أو مقالاً ضد الادعاءات الصهيونية تحت ذريعة اللاسامية، وتصفيته جسدياً إذا اقتضى الأمر، ورغم أن هذه القيادات قامت قيامتها ولم تقعد إزاء كل من حاول التشكيك إعلامياً بأسطورة (الهولوكست) الكاذبة... ورغم أن مفكراً كرجاء غارودي ظلّ يلاحَق السنوات الطوال من قبل هذه القيادات وأذنابها، لا لشيء الّا لأنه ألّف كتاباً عن الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

إن حرية الرأي أو الصحافة في ديار الغرب، لعبة مزدوجة ذات مكيالين، يحسن الغربيون توظيفها ضد خصومهم، ومع أصدقائهم، ولكنها أصبحت عبر السنوات الأخيرة، تحديداً، لعبة مكشوفة لم تعد تنطلي على أحد...

ما الذي يستطيع أن يفعله هذا الحمق الأعمى، والتعصّب المقيت، والكراهية السوداء سوى أن تزيد المؤمنين بهذا الدين إيماناً على إيمانهم، وتصهر معدنهم فلا يتبقى منه سوى عروق الذهب الأصيل.

لقد كانت الوخزة الدانيماركية مؤلمة حقاً، اخترقت الجملة العصبية لكل مسلم شريف في هذا العالم، وآذته وأحزنته، ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ دفعت بقوة أسطورية إلى جملة من ردود الأفعال التي عمّقت وعي الأمة بدينها وتشبّثها بعقيدتها، ومحبّتها واعتزازها وعشقها لرسولها الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولقد رأى العالم بأمِّ عينيه قدرة أبناء هذه الأمة على التضحية في لحظات التحدي بالغالي والنفيس، حكومات وأرباب مؤسسات تجارية وجماعات وشعوباً... كما رأى مدى محبة المسلمين ـ على امتداد جغرافية عالم الإسلام ـ لرسولهم ومعلمهم وقائدهم ونبيّهم عليه أفضل الصلاة والسلام.

إنني أتذكر مقولة مستشرق فرنسي شريف، وما أكثر الشرفاء في ديار الغرب، أولئك الذين يغطي على مواقفهم دخان التعصب والكراهية.

(أميل درمنغهم) في كتابه المعروف (**حياة محمد**): كيف أن القرآن الكريم قدّم عن المسيح عليه السلام، وأمّه البتول العذراء، أكثر الصور نبلاً وطهراً، وقال مخاطباً مريم عليها السلام: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]

ومع ذلك يتساءل (درمنغهم) دهشاً: كيف يمقت الغربي هذا الكتاب الذي يرسم هذه الصورة الوضيئة، ويتشبث بأسفار التوراة التي رسمت أبشع صورة للقديسة مريم... العذراء... البتول؟!

وأتذكر أيضاً ظاهرة أخرى لفتت أنظار هذا المستشرق: تلك المحبة الموغلة في الأعماق، والتي تصل حدّ العشق للأمة الإسلامية إزاء رسولها (ﷺ)... يكفي ـ كما يقول الرجل ـ أن نقوم بإحصاء سريع لاسم محمد في عالم الإسلام!!

أتذكّر أيضاً زبانية قريش الوثنية وهم يستفزون الصحابي الأسير (زيد بن الدثنة) الذي سيصلب بعد لحظات، فيقول قائلهم: **أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فيجيب: والله ما أحب أن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي... فيقول (أبو سفيان) للملأ من حوله: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً...**

لقد كان الكاريكاتير الدانيماركي ـ بحقّ ـ شوكةً قاسيةً أدمت قلوبنا جميعاً، ونحن نعاين هذا الذي ترسمه اليد السوداء عن رسولنا (ﷺ).

ولكن ردَّ الفعل كان بالقوة التي لم يتوقعها الكثيرون، وهو علامة صحة وعافية في جسد هذه الأمة...

إلّا أن هذا وحده لا يكفي... المقاطعة والاحتجاج والتظاهرات وسحب السفراء... لا يكفي... ولا بدّ أن ينضاف إليه جهد إيجابي

فعال لتقديم مشروعنا الحضاري إلى الآخر... وإلى الغربي على وجه الخصوص، بما أن الإسلام مشروع حضاري على وجه التحديد، تَشَكَّل في الأساس لإنقاذ الإنسان، وتحريره، وإخراجه من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتمكينه في نهاية الأمر من صياغة حياة تليق بإنسانية الإنسان... والغربيون لا يكادون يعرفون عن هذا شيئاً...

فمن أجل سدّ ذرائع الهجوم على رسولنا وديننا وعقيدتنا وقرآننا، عيلنا أن نبدأهم بتقديم هذا كله، بخصائصه الأصيلة، وبوعده بمستقبل يليق بكرامة الإنسان وسعادته على الأرض.

لقد كان فيلم كفيلم **(الرسالة)** للمخرج الكبير مصطفى العقاد رحمه الله واحداً من حلقات مؤثرة خصبة وكثيرة، يمكن إذا أُحسنت صياغتها أن تقود الغربيين إلى تعارف أكثر عمقاً مع هذا الدين وقرآنه ورسوله... وحينذاك سيكون الحال غير الحال... وفي كل الأحوال يجيء التحدي لكي يصنع الاستجابات التي تغير مجرى الحياة وتعيد صياغة التاريخ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].



٣٩

في الردّ
على الكاريكاتير الدانيماركي...

البداية الحقيقية الجادة هي أن نكفّ عن توجيه الخطاب إلى أنفسنا... فنحن جميعاً لسنا إلّا قلّة ممن لم ينالوا رحمة الله... نؤمن حتى أعمق نقطة في وجودنا بعظمة رسولنا المعلم عليه أفضل الصلاة والسلام، وتفرّده، وكونه النموذج الأمثل للبشرية في كل زمن ومكان...

ولكن في أن نتوجه بالخطاب إلى الآخر، الذي لا يكاد يعرف شيئاً عن هذه الشخصية، بل إنه حتى في هذا القليل الذي تلقّاه عنها دُخّن عليه، وشُكّل في الاتجاه المضاد الذي يمحو الحقائق الفريدة، بل يمضي إلى أبعد من ذلك فيتّهم ويدين!!

وما من ريب في أن هناك مراكز قوى متجذرة في ديار الغرب لا تريد للصحوة الصحيحة للإسلام ورسوله أن تصل إلى العقل والوجدان الغربي... والأسباب كثيرة لا مبرّر حتى لاستعراضها أو التأشير عليها. ولكن هناك ـ بالمقابل ـ إذا أردنا

أن نكون موضوعيين، استعداد مدهش لقبول الحقيقة، وربما الانتماء إليها، وهذا ما حدث ويحدث يوماً بيوم، ومن فئات وشرائح شتى.

فلعلّ استفزاز (الكاريكاتير الدانيماركي) ينطوي على نفع بالغ للمسلمين: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩]، ليس فقط لأنه دفعهم لمزيد من التوحّد في مواجهة التحدّي، وليس فقط لأنه عبّر عن نفسه بجملة من الردود الإيجابية التي تبشر بكل خير، بل لأنه، قبل هذا كلّه، دفعنا إلى أن نفكر جدّياً بضرورة تقديم صورة النبي العظيم على حقيقتها وجلالها، للآخر، فهي وحدها الكفيلة بإسقاط كل ترّهات الخصوم وأباطيلهم وظنونهم ونزغاتهم.

وليس أشدَّ تأثيراً من أن نتقدم إليهم بشخصية رسولنا (ﷺ) ومشروعه الحضاري الذي دعا إليه، ووضع تأسيساته الكبرى، وجعله بين يدي البشرية الهادي والدليل كلما حزبها الأمر، وضاقت عليها السبل، لكي يخلّصها من كل صنوف التعاسة والشقاء، وينتقل بها إلى برّ الأمن والأمان، والتوحّد والائتمان، والعطاء والإبداع...

وليس أدلّ على قبول الغربي هذا الأمر، مما فعله ـ على سبيل المثال ـ فيلم (**الرسالة**) الذي أخرجه (مصطفى العقاد) رحمه الله، حيث كانت طوابير الناس هناك تقف وراء شبابيك

التذاكر لحجز أماكنهم ومشاهدة الفيلم، الذي استغرق عرضه في دور السينما الأسابيع الطوال، دون أن تنطفئ شهوة الغربيين لمشاهدته، والانفعال به، والإعجاب بشخصية هذا النبي الإنسان الذي يعرف بنبله وسماحته كيف يكسب الخصوم والأصدقاء...

فإذا كان بمقدور (فيلم) واحد أن يفعل هذا كله، فماذا لو وُظفت (الفضائيات) الإسلامية لتقديم هذه الصورة بلغات القوم، وماذا لو أنشئت ـ ابتداءً ـ فضائيات بالإنكليزية والإسبانية والفرنسية والألمانية والروسية والإيطالية، إلخ... تتولى ببرامجها المحكمة إزالة الغبش عن عقول الغربيين، وإعطاءهم بدلاً من ذلك الزاد الحقيقي من سيرة الرسول الإنسان عليه أفضل الصلاة والسلام؟!

إننا في عصر الإعلامية السريعة والقديرة على الانتشار ومخاطبة ملايين الناس في دقائق ولحظات، والتأثير فيهم... وفي عصر العولمة التي جعلت من العالم كلّه قرية صغيرة، أو نادٍ للتعارف... أفلا يتحتم أن نتحرك، وبالسرعة الموازية نفسها، استجابة للتحدي وتقديم ما عندنا للناس في كل مكان؟

وإنني لأتذكر ها هنا، ما سبق وأن حدثنا به، في أواخر تسعينيات القرن الماضي، في كوالالمبور بماليزيا الداعية الإسلامي المصري «عبد المنعم خفاجي»، حول ترجمته معاني القرآن للألمانية وتنزيله للسوق في ألفيّ نسخة، ما لبثت أن نفدت في أيام معدودات، حيث أقبل عليها الألمان يقرؤونها بنهم ويعلن

بعضهم إسلامه... الأمر الذي دفعه إلى التفكير بتوسيع المشروع وترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأساسية الأم في ديار الغرب، وبخاصة الإسبانية والروسية، وأنه يقوم الآن برحلته هذه جمعاً للتبرعات المالية التي تعينه على تنفيذ هذا المشروع الكبير...

إن سيرة الرسول (ﷺ) مدرسة خصبة مترعة بالقيم والخبرات والتعاليم التي تتعامل مع كل زمن ومكان، وتحاور القرن العشرين والقرن الثلاثين على السواء... ويكفي أن نتذكر ـ مرة أخرى ـ مشروعه الحضاري، وتعامله مع الآخر، وتقديمهما للعقل الغربي من أجل منحه المزيد من القناعة بفرادة هذا النبي العظيم، وقوة مشروعه، وإنسانية تعامله مع الأطراف كافة...

وحينذاك فقط نكون قد أدّينا ما في أعناقنا من دين، ورددنا على «الكاريكاتير الدانيماركي»...



٤٠

في بديهيات المقاومة...

يضطر الإنسان أحياناً، وفي ضوء المعطيات المعكوسة، للحديث عن البداهات... فإن الولايات المتحدة نفسها ما كانت لتقوم لولا مقاومة جماهيرها للاستعمار البريطاني... ودول أمريكا اللاتينية كافة ما كانت لتتشكل لولا مقاومة شعوبها للاستعمار الإسباني ـ البرتغالي... بل إن فيتنام ما كانت لتتحرّر لولا مقاومتها للاستعمار الأمريكي وإرغامه على التسليم بمطالبها.

إن المقاومة الشعبية حق مشروع في كل زمن ومكان، وهي من الأمور المتفق عليها بداهة... وحيثما كان هنالك احتلال لبلد ما، كان هنالك في المقابل جهد موصول لمقاومة هذا الاحتلال وإخراجه من الأرض... وهذه مسألة محسومة على المستويين الديني والمدني على السواء، وقد أصبحت عرفاً دولياً، أو بداهة من بداهات السياسة.

والآن ومن خلال المعطيات الأكثر حداثة، عبر العقود الأخيرة، وبخاصة النظام الدولي الجديد، ومقاومة الإرهاب، والعولمة، والتنظيرات المساندة من مثل (نهاية التاريخ) لفوكوياما

و(صراع الحضارات) لهنتنكتن، يراد للقاموس المتفق عليه عالمياً أن يلغى، وأن يحل محلّه قاموس جديد لا يملك أي عمق تاريخي أو عرف دولي، مما اتفق عليه على مدى قرون متطاولة... قاموس ينطوي على كل المفردات التي تتيح للقطب الأحادي المتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية، أن يمسك برقبة العالم، وأن يمضي كلمته التي لا رادّ لها على جلّ شعوب الأرض، وأن يعتبر كل «مقاومة» مشروعة عملاً إرهابياً يستحق الملاحقة والتصفية، وتستعدي ضده كل القوى التي ترى في الولايات المتحدة صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في تقرير المصير البشري.

وإذا رجعنا إلى فيلسوف القانون المعروف (هوبز) وتنظيراته الحادّة في (لوياتان)، والتي تتمحور عند حقيقة أن الدول الكبرى إذا أرادت فرض احترامها على العالم، فإن عليها أن تعتمد أقصى وتائر القوّة والإرهاب لتحقيق المطلوب. وقد بدأت الولايات المتحدة بالفعل، وربما من عهد رونالد ريغان وصولاً إلى بوش الابن، تنفذ مقولات هوبز، وتعتمد مفاهيم إرهاب الدولة نقطة انطلاق لسياساتها نحو العالم.

ها نحن نجد أنفسنا مرة أخرى في حالة معكوسة، حيث يباح لإرهاب الدولة أن يمضي إلى أهدافه بأقصى وتائر العنف والقوة، وحيث لا يسمح للشعوب المقهورة أن تدافع عن نفسها وأن تقاوم هذه القوة المستعمرة التي احتلت ديارها، واعتمدت لتنفيذ هدفها هذا كل أسلوب على الإطلاق، بغضّ النظر عن مدى توافقه مع منظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية.

هذه واحدة مما أردت أن أبدأ به مقالي هذا.

وأما الثانية فهي أن النظام الدولي أو العالمي الجديد سيقود العالم بدوله وشعوبه كافة، وبقوة آليات العولمة والإعلامية، وتنظيرات نهاية التاريخ وصراع الحضارات، إلى حالة لا يحسد عليها... حالة تغيب فيها الأبعاد الدينية والخلقية والإنسانية، وتتسطح الحياة في مدى الطول والعرض، وتغدو مجرّد تكاثر بالأشياء، وتطاول في العمران، وإشباع ملتوٍ للحاجات الأساسية... ويصبح فيها الإنسان، رجلاً أو امرأة، سلعة للإعلان، ولعروض البيع والشراء، ويغدو المالُ الإلهَ المعبود... حياة فقدت طعمها العذب، وضاع سرّ طلاوتها، وأصبحت لهاثاً محموماً وراء الأشياء... والذي لا يركض يداسُ بالأقدام... والأصوات التي تنادي باستعادة منظومة القيم الضائعة، يحجر عليها وتموت اختناقاً...

وعالم الإسلام، بوجه الخصوص، هو أشد المتضرّرين بهذا الذي يشهده العالم، والذي ستزداد وتائره قوة واندفاعاً بمرور الوقت، لأنه سيفقد كل شيء: خصوصياته الدينية والأخلاقية والإنسانية، وموقعه في جغرافية العالم الذي لن يسمح له بالسيادة فيه، وبمنطق البقاء الدارويني للأقوى وليس للأصلح، إلّا لمن يملك مخالب ذرية وأنياباً عابرة للقارات... وسيكون كالنعامة التي خرجت تطلب قرنين، فعادت بلا أذنين!!

في حالة كهذه تغدو مقاومة جماهير المسلمين على إطلاقها، ضرورة من الضرورات، ويغدو تسلّحها بكل آليات المقاومة العقدية

والفكرية والتربوية والاجتماعية والروحية... ضرورة ـ أيضاً ـ من الضرورات.

والمسألة في بُعدها الأكثر شمولاً مسألة تحدٍّ حضاري نكون فيه أو لا نكون... وهذه الأخيرة ستأتي على الأمة الإسلامية من القواعد؛ إن هي ألقت سلاح المقاومة واستجابت للإغواء...

إن ثقوب الجسد الإسلامي المعاصر كثيرة، وعلى كل المستويات، فإن لم تحصّن جماهيره نفسها بقوة الرفض والمقاومة؛ فإنها ستُخترق... وتضيع...

إذا استدعينا مفردات القاموس الفقهي للأمة، فإن «جهاد الدفع» بقوة السلاح يغدو قدراً محتوماً، إذا أريد للبلدان الإسلامية المحتلة أن تحرّر الديار والعباد.

أما «جهاد الطلب» خارج الأرض الإسلامية، فإن عليه أن يعتمد مبدأ التعامل مع الآخر بقوة المشروع الفكري الإسلامي، أو ما يسمى بالمشروع الحضاري البديل، وليس بقوة السلاح حيث الفارق كبير، والهوّة واسعة، والنتائج المتمخضة عنه تنذر بالويل.

إن خلاص البشرية، وإعادة صياغة المصير، والخروج من البؤر الضيّقة التي يختنق فيها الإنسان، وتعديل الوقفة الجانحة للحضارة الغربية المادية المعاصرة، لن يتحقق، كما يؤكد العديد من المفكرين الغربيين أنفسهم، إلّا بالمشروع الإسلامي الذي سيحصّن الأمة الإسلامية نفسها، ويخترق الآخر بالسبل الممكنة وليس بمنطق الاستحالة الذي يعتمد القوّة المسلحة...

٤١

قيادة الشهداء... وقيادة الجبناء...

شهدت أمتنا في تاريخها الطويل صنفين من القيادات: قيادة الشهداء، وقيادة الجبناء...

عندما تصدّى الشهداء لقيادتنا فتحنا العالم، وحررنا الإنسان، وتربعنا في القمة من حركة التاريخ... وقدنا الحضارة البشرية... وصنعناها...

كان الرجل منهم وهو يتولى (المهمة)، يصوم عن الملذات، يفطم نفسه عن المتع المباحة، ويحيا زاهداً، متقشفاً، صامداً بوجه الإغراء، رغم أنه في قمة العالم...

وكان يزداد فدائية، وشجاعة، وإقداماً... يرفض منطوق الخوف والجبن والتردد... يستأصل بقايا جذورها من نفسه... حيث لا يتبقى هناك سوى شيء واحد: عشق الشهادة وكراهية الحياة...

ويصعب على الإنسان، وهو محاط بنعيم الدنيا، أن يتمرد على الدنيا... يصعب عليه وهو يحظى بالأمن والفرح، أن يتجاوزهما إلى مواطن الخوف والحزن...

لكنهم بالإيمان الذي فجره الإسلام في قلوبهم تمكّنوا من

تجاوز قوى الشدّ والهبوط، وتحرّروا من الضرورات... وأصبحوا، بذلك ولذلك، أهلاً لأن يلووا عنق التاريخ ويمتطوه إلى أهداف ومصائر ما حلمت بها أمة في التاريخ...

كثيرون منهم ماتوا أو قتلوا أو اغتيلوا، وهم يجاهدون نفوسهم وأعداءهم على السواء، من أجل أن يظلوا متحررين... أن يبقوا على مستوى المسؤولية كما أراد الله ورسوله أن تكون...

والذين ماتوا منهم على فرشهم وأسرّتهم، ذهبوا وهم يحملون في قلوبهم الحسرة على أن لم يلقوا ربهم في ساحات القتال...

صفّ من الشهداء عبر تاريخنا الطويل... وأمتنا تقاتل الجاهلية العربية فتنتصر عليها... وتقاتل الفرس والروم فتنتصر عليهم... وتقاتل الهنود والصينيين والقوط فتنتصر عليهم... وتقاتل التتر والصليبيين فتنتصر عليهم... وتقاتل الروس والأوربيين فتنتصر عليهم... ورغم أنها كانت في معظم صراعاتها الأقلَّ عدداً وعدّة، الا أنها كانت في معظم لقاءاتها تخرج منتصرة... مؤيدة...

ويوم أن بدأنا نخسر المعارك، ونعاني الهزائم، ونتراجع عن مساحات واسعة من الأرض التي حررناها... فلنا أن نعرف أن سبباً كبيراً من أسباب الخزي والهزيمة يكمن في غياب قيادة الشهداء، وحلول قيادة بديلة عنها هي قيادة الجبناء...

يتسلّق الرجل منهم قمة المسؤولية من أجل أن يحصل على

ملذّة أكثر ويحظى بمتعة أكبر، ويندفع وراء مظاهر الجاه والسلطان، حتى يبني بها بينه وبين أمّته سدّاً...

وكان الرجل منهم كلما انقضت الأعوام على قيادته، ازداد أنانية وجبناً وإحجاماً... يرفض منطوق الشجاعة والإقدام... يستأصل من نفسه بقايا جذور الخير فيها، ولا يتبقى هناك سوى شيء واحد: حب الحياة وكراهية الموت.

وإذ كانت الهزائم العابرة، وسط الانتصارات الحاسمة، تسحق قادتنا الشهداء... تسلب أمنهم وراحتهم فلا يقرّ لهم قرار حتى ينتصروا أو يموتوا همّاً وحزناً... إذا بالهزائم الساحقة، تمنح قادتنا الجبناء راحة وأمناً، وتزيدهم شحماً ولحماً... وهم متكئون على كراسيِّهم، يبرّرون هذه الهزائم بألف مكر ومكر، ويغطّون عليها بانتصارات تافهة عابرة، يمطّون فيها لكي تقدر على تغطية الهزائم الفاجعة النكراء...

من أجل ذلك هُزمنا أكثر من مرة... لكن كل الهزائم التي مُنينا بها شيء... وهزائمنا المتتالية أمام بني إسرائيل شيء آخر...

ماذا لو استيقظ قادتنا الشهداء، أو أطلّوا من قبورهم... فرأوا بني إسرائيل يجلدون أحفاد الصديق وعمر وعلي وطارق والناصر... صباح مساء؟!



٤٢

كتاب الجيب الفقهي!!

تتضمن هذه الورقة مقترحاً بإصدار دوريّة أو سلسلة كتب ميسّرة في الفقه، تعالج المسائل المعاصرة والمستجدة، فضلاً عن القضايا الثابتة، وتعتمد أسلوباً حديثاً في اللغة ومنهجاً يسعى لتوحيد المواقف في الحالات الخلافية الحادّة التي تحيّر المسلم وتربكه.

إن المسلم المعاصر عندما تجابهه معضلة ما، يلجأ إلى هذا الكتاب الفقهي أو ذاك، وقد يطلب العون في أبواب المجلات المعروفة بـ «فتاوى فقهية»، لكنه ما يلبث أن يجد نفسه إزاء لغة سقيمة في الخطاب الفقهي، وإجابات أو مواقف شتى، وليست إجابة واحدة أو موقفاً محدّداً، فيقع في دائرة الإرباك والغموض والحيرة.

إنها اللغة السقيمة القادمة من القرون الوسطى، والخلافيات التي قد تصل حدّ التناقض الكامل، بحيث إنها ترجع بالمسلم ـ أحياناً ـ إلى نقطة الصفر كرّة أخرى.

يمكن تسمية المحاولة المقترحة بالمورد، أو الدليل الفقهي

للمسلم المعاصر، أو المنهاج الفقهي، أو كتاب الجيب الفقهي لمفردات المسلم اليومية... أو غيره...

وقد يكون من أهمّ مبرّراته أن يعطي المعهد العالمي فرصة المبادرة لتقديم عمل حيوي يهمّ الناس جميعاً، فيفتح أعينهم على هذه المؤسسة، فضلاً عن كونه يؤكد توجّهات المعهد في مشروعه الشامل للتحقّق بالبديل الحضاري المرتجى.

وهذا لن يتأتى إلّا بتقديم البدائل الفقهية الواضحة المحدّدة لحلّ مفردات الحياة والسلوك، وبخاصة تلك القضايا الملحّة التي لم يصدر فيها ـ بعدُ ـ رأيٌ واضح محدّد (من مثل الزكاة في زمن تحوّل فيه النشاط المالي والاقتصادي عموماً إلى شبكة معقدة من المعطيات، التي تنطوي على عشرات الحالات، وهي جميعاً تحتاج إلى جواب فقهي... ومن مثل قضايا الزواج... قضايا التعليم والعمل الوظيفي... عمل المرأة والمساحة المتاحة لها للتحرك والفاعلية في الحياة الحديثة... إلى آخره...).

إن المحاولة ترتبط ولا شك بمسألة فتح باب الاجتهاد، فلا بدّ ـ أوّلاً ـ من تنفيذ جهد عملي، وآخر دراسي، لإضاءة هذه المسألة، وقد يجيء الدليل المقترح محاولة عملية لتأكيد مصداقية إمكان تحقيق تغطية فقهية لأهمّ المستجدّات.

ويستحسن من أجل نجاح المحاولة، أن يقتصر الدليل، أوّل الأمر، على مسائل محدّدة، وربما مسألة واحدة كالزكاة، لكي تكون أشبه بجهد تجريبي لغرض اختبار مدى نجاحه وانتشاره، وبعدها

يمكن التحوّل لإصدار جزء آخر يعالج مسألة أخرى كقضية الزواج، أو العمل الوظيفي، أو دور المرأة... الخ.

على المستوى الفني يمكن أن ينفّذ المشروع بصيغة دورية، أو مجلة فصلية، تمضي أعدادها لتغطية المفردات الملحّة واحدة إثر الأخرى، أو بصيغة كتاب ذي أجزاء متتالية يختص كل جزء بموضوع ما، ويتم توزيع المفردات على عدد من خيرة الفقهاء، الذين يجمعون بين الإلمام بالعلوم الشرعية وبين الانفتاح على الثقافة المعاصرة وتحدّياتها.

ويمكن ـ كذلك ـ من أجل كسب الوقت ولأغراض إعلامية، فتح ملفّ في مجلة (المسلم المعاصر)، التي أنشئت في الأساس لمهمة كهذه، تطرح فيه ـ أي في الملفّ ـ كل المسائل المنهجية والفكرية والفنية التي يتطلبها المشروع، وقد تمضي المجلة للبدء في معالجة إحدى المفردات، ووضع الحلول الفقهية لجوانبها كافة، ثم التحوّل إلى مفردة أخرى، لكي تتشكل في نهاية الأمر بدايات جادّة للدليل المقترح.

وقد يكون في سياق جهد كهذا، القيام بمحاولة ببليوغرافية لحصر وفهرسة جلّ الجهود الدراسية التي عالجت المسائل الفقهية من خلال رسائل الدراسات العليا، أو بشكل مستقلّ... في المؤلفات المستقلة، أو على صفحات الدوريات المتخصّصة، أو في إصدارات المؤسسات الشرعية والفقهية والقضائية والتشريعية...

وقد يكون مهماً ـ كذلك ـ وضع منظومة من الموضوعات

الملحّة مع المسوّغات والخطط البحثية التفصيلية المرسومة بعناية، لكي تكون بمثابة حقل للاختيار بالنسبة لطلبة الدراسات العليا (الدبلوم والماجستير والدكتوراه)، ويستحسن توزيع كراريس مستقلة بهذه الموضوعات ومسوّغاتها وخططها على المعاهد والجامعات والمؤسسات المعنية بالدراسات العليا في مجال الفقه والعلوم الشرعية.

إن معضلات العصر الحديث ومستجدّاته تمثل تحدّياً ملحّاً للعقل المسلم، وهي بمثابة اختبار لقدرته على الفاعلية في صميم العصر، من خلال اعتماد وتحكيم الأصول الإسلامية: القرآن والسنة والسوابق الفقهية.

وإن الاستجابة لهذا التحدّي لا تحقّق فقط إجابة على العديد من الأسئلة الملحّة في معترك الحياة، وإنما تؤكد ـ على المستويين العقدي والحضاري ـ قدرة هذا الدين على إعادة صياغة الحياة في كل زمن ومكان وفق تصوّراته المتميزة، وهي مسألة ترتبط ـ مرة أخرى ـ أشدّ الارتباط بالمشروع الحضاري الذي يتوخّاه المعهد بمواجهة، أو كبديل عن كل الإخفاقات التي شهدتها القرون الأخيرة بسبب من الممارسات الإسلامية الخاطئة نفسها، أو بتأثير من ضغوط الغير، وغزوه الفكري، والحضاري بوجه عام.

إن الاجتهاد جزء أصيل من الالتزام، فالمسلم ـ فرداً وجماعة ـ لا يكفيه أن يصلّي ويصوم ويحجّ إلى بيت الله

الحرام... ولا يكفيه أن ينفّذ مقولات عقيدته وشريعته في واقع حياته اليومي... لا يكفيه أن يثور ويقاتل ويستشهد... هذه كلها جوانب من التزامه بالعقيدة التي آثر الانتماء إليها.

ولكن ثمة ما لا يقلّ عنها أهمية، وان كان من قبيل (فرض الكفاية)، الذي قد تتحمل تنفيذه هذه الجماعة أو تلك من المسلمين: حمل المعطيات الإسلامية بالفعل الاجتهادي إلى آفاق الزمن والمكان... تحكيمها في صيرورة الحركة التاريخية... وضعها في مركز الشاهد على كل صغيرة وكبيرة... تمكينها من ممارسة إلزامها الدائم في كل تجربة وكل مرحلة... جعل (الإسلامية) الحكم والهادي والموجه والدليل الذي يعلّم ويرشد... بل يبني ويصوغ بالمادة الإسلامية الأصيلة كل ما يقوم على ساحة الحياة من عمارات ومؤسسات، وكل ما يمارس فيها من أنشطة وفاعليات...

حتى مدننا وشوارعنا ودورنا وأماكن ترفيهنا؛ يتحتّم أن (نجتهد) في أن تكون امتداداً لرؤيتنا الإسلامية، لفكرنا ووجداننا الايماني، وذوقنا الذي يميل دائماً إلى أن يربط المنظور بالغيب، والتراب بالحركة، والأرض بالسماء...

وإذا كانت المنائر الممتدة إلى السماء إشارة على قدرة الفنان المسلم على تصميم المفردة المعمارية التي تعبّر عن تصوّره للعالم والحياة والوجود؛ فإن حياتنا المعاصرة كلّها يتحتّم أن تنبثق فيها (الإشارات) التي تجتهد أن تحمل دلالتها على كل

ما هو إسلامي، وأن يتغلغل الالتزام الديني في سُداها ولُحمتها، ويكون نولها الذي يمنح نسيجها هذا الشكل أو ذاك.

إن الاجتهاد هو ـ بشكل من الأشكال ـ حماية للتشريع الإسلامي من التيبّس والتسيّب، وهذه مسألة بديهية، ولكن ثقل الواقع كاد يطمس عليها.

إننا منذ قرون لا نمارس الاجتهاد... فكأننا قد اخترنا أسلوب العمل بصيغة بديهية مضادة لا يمكن قبولها: ترك الممارسة الإسلامية تصاب بتصلّب الشرايين أو بالرخاوة والتوسّع والانفلات.

إن الإسلام حركة باتجاه (التوافق) مع سنن الوجود والعالم، وإيقاع الكون والطبيعة، فأحرى به أن يكون متحققاً بالوفاق مع نفسه، أي بعبارة أدقّ: أن يكون كل تعبير إسلامي، في هذا الجانب أو ذاك من الحياة، وإزاء هذه القضية أو تلك من قضايا الوجود والعالم، يحمل إيقاعه المتوحّد مع سائر التعابير عن الجوانب الأخرى من الحياة والقضايا المتنوعة في الوجود.

نسيج وحده، هكذا يجب أن ينزل الفعل الإسلامي المتفرّد، المتميز، إلى العالم... إيقاع متوحد، وتوافق منظور، وتناغم شامل بين كل جزئيات الفعل وأطرافه. فإن لم يعن الفعل الاجتهادي على تحقيق هذا التوحّد والتوافق والتناغم بين المعطيات والتعابير الإسلامية وبينها وبين العالم، فمن يتولى هذه المهمة؟ ألا يخشى أن يؤول الأمر بالممارسة إلى التشتت والتصادم والتغاير، فتفقد شخصيتها وسماتها؟

إن الاجتهاد ـ بهذا المعنى ـ تنفيذ لمهمة مزدوجة: الحفاظ على هندسة الإسلام نفسه، من جهة، وتحقيق انطباقه على الواقع التاريخي ـ من جهة أخرى ـ أي على بُعْدَي الزمن والمكان. ولن يكون ذلك إلّا لصالح الإنسان ومكانته المتفرّدة في العالم.

قد يقول قائل: إن جهداً كبيراً كالموسوعة الفقهية التي نُفّذت أقسام منها في الكويت عبر السنين الأخيرة، يمكن أن يكون كفاءً لمطلب كهذا.

والجواب أن عملاً كذاك يمكن أن ينحو منحى أكاديمياً ينطوي على المعطيات الفقهية بمفرداتها كافة، ويشكّل على المستوى الكمّي ثقلاً كبيراً، قد يبعد به ـ بشكل أو آخر ـ عن أن يكون دليل عمل يومي (عملي)، يعين المّسلم بيسر وسهولة على وضع اليد على الأجوبة المناسبة لمعضلات حياته اليومية، فضلاً عن أن المطلوب بالدرجة الأولى ليس حصراً للمعطى الفقهي على إطلاقه، وإنما متابعة للمستجدّات على وجه الخصوص... لتعقيدات الحياة الجديدة... للمطالب المتراكمة التي تزداد ثقلاً يوماً بعد يوم... للمتغيّرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتقنية، التي لا تكاد تستقرّ على حال إلّا لتتجاوزه إلى صيغ أخرى.

إن متابعة كهذه ضرورية حتى على مستوى وسائل الترفيه التي تشكل إحدى انفجارات العصر، والتي تتطلب أكثر من فتوى تنير سبل التعامل معها دونما إفراط ولا تفريط، وبعيداً عن حدّيّ العزلة والاندماج اللذين يقودان الممارسة الإسلامية إلى الشلل أو الجنوح.

٤٣

لك الله يا أمة العرب!!

فما من أمة في العالم تتفنن في هدر مالها، وتتوسل إلى ذلك بالوسائل؛ كأمة العرب...

تهدره بالاستنزاف السياسي والعسكري... وتهدره بالفوضى الاقتصادية... وتهدره بالتكديس العمراني... وتهدره بالممارسات الجنسية الهابطة، والقمار، وإشباع الشهوات الآثمة... وتهدره بالنزوع الاستهلاكي الذي يبلغ أرقاماً فلكية... وتهدره بغياب التخطيط الواعي الذكي المدروس... وتهدره ـ وهذا هو الأنكى والأمر ـ بالفساد الإداري، والسرقة، والمحسوبية، والنهب العام... ثم هي تهدره بالاستجابة للمكر الدولي، الذي يعرف كيف يحتلب الخصوم...

أيُّ هدر هذا الذي لا يكاد يبقي لشعوب الأمة شيئاً؟ والذي يبعثر أموالها ذات اليمين وذات الشمال، بينما هي في مساحات واسعة من الأرض تعاني من الجوع والفقر والمسغبة، ولا تكاد تجد ما يسدّ جوعتها، وتحيا حياة المذلّة والفاقة دون مستوى الفقر بكثير...

هذا بينما كان يتحتم، لو أحسن توظيف المال العربي المتدفق على خزائن الحكومات بالمليارات؛ أن يفعل الأفاعيل في تحقيق مجتمعات العدل والكفاية، والقضاء على ظاهرة الفقر، وتحسين الخدمات والإعمار في مناحيه كافة، وتوفير السكن للمواطنين جميعاً، فضلاً عن التحقق بالقوة السياسية والعسكرية والقدرة، بالتالي، على مجابهة المكر الدولي الذي لا يكفّ يشتغل ضد هذه الأمة ليلاً ونهاراً، من وراء ستار وأمامه أيضاً!!

فلو تحقّق هذا المطلوب، لتحوّلت الأمة العربية إلى واحدة من أكثر شعوب الأرض رفاهية وسعادة وأمناً واطمئناناً، ولوضعت خطواتها على الطريق الصحيح للتقدم واللحاق بالخصم الذي فاتنا بكثير...

ولكنها مجرد أمنية تدور في الضمائر والأذهان، أما تحقّقها على مستوى الواقع فأمرٌ يكاد يكون مستحيلاً، بسبب قوى الشدّ الهائلة التي تسحب الأمة إلى الوراء، وتهدر أموالها بألف صيغة وصيغة، لكي ما تلبث هذه الأمة أن تجد نفسها تعاني الويلات والهزائم والانكسارات، والحياة المرّة كالعلقم بسبب الفقر والمسغبة والجوع، وغياب العدالة في التوزيع...

وتعامل هذه الأمة مع (النفط) الذي حباها الله سبحانه به بكميات هائلة، لهو واحدٌ من سوء التصرّف بالمال العام، سواء في بيعه للمستكبرين بأسعار رخيصة أقل بكثير من أسعار السوق الحقيقية، أو في تهريبه سرّاً، أو في استخراجه بكميات أسطورية

كبيرة جداً، دون أن يحسب الحساب للأجيال القادمة، التي قد تستيقظ وليس ثمة قطرة من النفط في ديارها... أو في هدر المردود المالي لهذه الثروة العملاقة بالأساليب والصيغ التي أشرنا إليها قبل قليل...

ويتذكر المرء قبالة هذا، ما فعله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بأرض السواد في العراق، والتي آلت إلى الدولة الإسلامية بعد فتح العراق وإسقاطها الإمبراطورية الساسانية، كيف جرت مناقشات مستفيضة من قبل أهل الحلّ والعقد، وطرحت وجهات نظر مختلفة بخصوص هذه الأرض ذات المردود المالي الكبير، والتي سميت بأرض السواد لكثرة أشجارها وزروعها...

بعض تلك الوجهات كان يقول بضرورة توزيعها على الفاتحين أسوة بالغنائم الأخرى، وبعضها الآخر يرى ضرورة إبقاء رقبتها بيد الدولة وتوزيع منفعتها على المقاتلين... وأخيراً، وبعد نقاش طويل، أقرّ ابن الخطاب العرض الثاني حماية لحقوق الأجيال التالية من المسلمين...

أي حرص هذا على أموال الأمة؟ وأيُّ إجراء سليم هذا في الدعوة لمناقشة الموضوع من قبل قادة الأمة للوصول إلى الموقف السليم؟ والموقف السليم هو هذا: أن تبقى الأرض بيد الدولة لكي يكون مردودها مضموناً للأجيال القادمة من أبناء الأمة...

الحديث عن موضوع هدر المال العربي يطول، ويتشعب، لأنه يعكس واحدة من أشد المآسي إثارة للحزن في الوجدان العربي...

ونختم المقال بهذه الأحاديث المتمخضة عن المؤتمر الذي عقد في القاهرة، بعد الإطاحة بنظام حسني مبارك، تحت عنوان (نحو استراتيجية وطنية لمكافحة الفساد)، بحضور ممثلين عن (١٩) دولة عربية، حيث قال رئيس المنظمة العربية لمكافحة الفساد (عامر خياط) للجزيرة: «إن المنطقة العربية سجلت إضاعة ألف مليار دولار، في عمليات فساد مالي وإهدار للأموال خلال النصف الثاني من القرن الماضي، تمثل ثلث مجموع الدخل القومي للدول العربية.

وشدّد في هذا الإطار على ضرورة تحديث التشريعات الحالية لمكافحة الفساد في المنطقة، بسبب ظهور جرائم جديدة في هذا المجال، مثل تبييض الأموال، والجرائم المصرفية.

ومن جهته عزا ممثل منظمة الشفافية العالمية (عزمي الشعيبي) السبب الرئيسي لضعف تفعيل النزاهة بالمنطقة في مكافحة الفساد، إلى غياب الإرادة السياسية لدى السلطة الحاكمة والطبقة السياسية.

وأضاف أن هناك عوامل أخرى تساهم في تكريس هذا الوضع، منها: ضعف أجهزة الرقابة على السلطة التنفيذية، وقوة السلطة الأمنية داخل الأنظمة العربية، وضعف تأثير المجتمع المدني وسلطة الإعلام»!!

وهذا يكفي...



٤٤

ما هو الرجعي... وما هو التقدّمي؟

ما هو الرجعي... وما هو التقدّمي؟

إن المستشرق المعروف (بارتولد) ـ مثلاً ـ يعتبر (إخوان الصفا) جماعة من المفكرين الأحرار... اتحاد شبيه بالجمعية الماسونية. (تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٨٠).

وغير (بارتولد) كثيرون أصدروا أحكامهم أو تصنيفهم للأنشطة التي شهدها التاريخ الإسلامي. ولكن على أي أساس؟ هل هو أساس علمي صحيح؟

إننا بإحالة العديد من هذه الأنشطة على المنظورِ الإنساني الحضاري نجد الأمر يختلف، وعموماً... فإن المسلم يملك تمييزه الخاص، وهو يرفض ـ ابتداء ـ تقسيمات صارمة كهذه... بين رجعيّ وتقدميّ وحرّ، أو أنه يتقبلها ولكن وفق مقاييس أخرى أكثر موضوعية وعدلاً، وهو الذي أمره كتابه الكريم بأن (يعدل) في حكمه على الأشياء والخبرات، وألّا يشطّ به النوى كراهيةً أو تحيّزاً: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾

[الأعراف: ١٨١]، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: الآية ٥٨]، ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

فما ينسجم ومطامح الإنسان المؤمن، ويتلاءم مع نزوعه العمراني ومهمته التي أنيطت به في العالم، يقف في خط التقدمية البنائية، وبالعكس، يكون رجعياً متخلّفاً وهدّاماً...

مهما يكن من أمر؛ فإن حركة معروفة كحركة القرامطة بأجنحتها كافة، وثورة معروفة هي الأخرى كثورة الزنج جنوبي العراق، تؤخذ ويُحكَم على تقدميتها أو رجعيتها من مواقفها إزاء الإنسان والعمران.

فقرامطة البحرين ـ على سبيل المثال ـ انطلقوا من بيئة بدوية جافية، وزادتهم أحقادهم على أهل السنة والجماعة قسوة وجفاء، فما وجد زعيمهم (الجنابي) مانعاً من إجراء تلك المذبحة الرهيبة التي شهدها موسم الحج عام (٣٢٦هـ)، والتي قطعت فيها رؤوس الآلاف من الحجاج المسالمين، وهو جالس منتشٍ بسكرة الخمر على صهوة فرسه، مردداً هذا البيت:

فلو كان هذا البيت لله ربنا لصبّ علينا النار من فوقنا صبّاً!!

ولم يكتف بذلك، بل أمر أتباعه بانتزاع الحجر الأسود من مكانه وتضييعه في الصحراء...

وأما ثورة الزنج في جنوب العراق، والتي اكتسحت البصرة،

فقد ألحقت بها خراباً يصعب وصفه، فقتلت ونهبت وأحرقت... حتى لقد اعتاد العراقيون على ترديد المثل الذي يقول «بعد خراب البصرة» مشيرين إلى ذلك الذي شهدته على أيدي الزنج.

هذه هي نماذج من أفعالهم، فهل يمكن التصديق بتصنيف الحركتين على خط «التقدمية»، كما فعل (بندلي جوزي) في كتابه **(من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام)** لا لشيء إلّا لأنهم نادوا بمشاعية الأموال، رغم أنهم لم ينفذوها وفق ما دعوا إليها في أدبياتهم المعروفة؟

المفارقات كثيرة، وكتّاب اليسار سوّدوا بها صحائف بحوثهم وكتبهم، فهذا ـ على سبيل المثال ـ مؤرخ عراقي يدعى (حسين قاسم العزيز) يكتب أطروحته للدكتوراه في إحدى جامعات الاتحاد السوفياتي قبل انحلاله، عن الحركة البابكية في أذربيجان، ويعتبرها، كما يدل عنوان الأطروحة، حركة تقدمية، رغم أن هذه الحركة مارست الكثير من الأعمال المضادة لبداهات التحضّر، فخرجت عن الإسلام، وقتلت وخرّبت، ونحت منحى شعوبياً ضد كل ما هو إسلامي عربي، واتصلت بأعداء الدولة العباسية من البيزنطيين، وشكّلت معهم تحالفاً لتدمير هذه الدولة ومن ورائها قيم العروبة والإسلام، حتى قيّض الله سبحانه لها الخليفة العباسي المعتصم، الذي تمكّن بعد طول عناء من سحقها وإخراجها من التاريخ...

لقد كانت الحركة البابكية في جوهرها حركة فارسية شعوبية

استهدفت تدمير العرب والإسلام، وها هو أحد الباحثين الذين غسلت أدمغتهم بالتوجهات الماركسية، يعتبرها حركة تقدمية!

فإذا ما عدنا إلى بدء حديثنا حول مقولة (بارتولد) من اعتبار (إخوان الصفا) محاولة من المفكرين الأحرار، أو اتحاد شبيه بالجمعية الماسونية، تذكّرنا كيف أن الماسونية في نبضها وأهدافها، ليست جمعية حرّة على الإطلاق، وإنما هي أداة مسخرة بيد الصهيونية العالمية، فيما أكدته جملة كبيرة جداً من البحوث والدراسات.

فأية معايير هذه التي يعتمدها المستشرقون وأذنابهم، للحكم على الحركات الفكرية في تاريخنا الإسلامي، وهل ثمة قيم موضوعية عادلة تنطوي عليها وتسوقها إلى مواقع الصدق الذي يمكن التسليم به؟ أم أن العداء المغروس في جبلّتهم لهذا الدين، ولتاريخه وحضارته، يسوقهم متعمدين أو غير متعمدين، إلى تصنيفات بائسة كهذه ما أنزل الله بها من سلطان... وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].



٤٥

ماذا يريد البابا؟!

أغلب الظن أن البابا في محاضرته السيئة إياها في ألمانيا لم يرد وجه الحق، ولا البحث العلمي الأكاديمي، ولا الموضوعية... كما ادّعى بعض أنصاره.

أيضاً فإن الحقد والكراهية على الإسلام ونبيِّه لا يفسِّران دوافعها، لأن هذا الحقد والكراهية ليسا بالأمر الجديد، فهما موجودان منذ زمن بعيد...

الجهل بالإسلام ونبيّ الإسلام؟ أبداً، فإن البابا يعرف عنهما الكثير، ولا يحتاج إلى من يذكّره بهذا... وبخاصة في مسألة موقف الإسلام من العقل...

هنالك ـ إذن ـ دافع آخر غير هذا وذاك... قد يكون نوعاً من الاعتذار للمسيحية الإنجيلية الجديدة في أمريكا، والتي نسجت خيوطها داخل الطائفة البروتستانتية التي فتحت أمامها الأبواب على مصاريعها، فيما استعصت عليها مساحات واسعة من الكاثوليكية، تمسّكاً منها بالقيم والثوابت الدينية المذهبية، ورغبة في عدم المساومة عليها...

ربما يكون هذا قد أغضب الإدارة الأمريكية التي يهيمن عليها الانجيليون... ومع الإدارة الأمريكية، ومن ورائها... اللوبي اليهودي والصهيونية وإسرائيل التي استطاعت أن تخترق العقل البروتستانتي، وأن تغرس فيه أسطورة عدم عودة السيد المسيح إلّا والدولة العبرية قائمة... وإلا فإنه لن ينزل أبداً!!

نوعاً من الغزل يمارسه البابا لتحقيق المقاربة المرجوّة مع الإنجيليين الجدد، وكسب ودّهم ورضاهم، والاعتذار عن تمنّع الكاثوليكية الأمريكية عليهم، وتأبِّيها على محاولة احتوائهم... أو اختراقهم...

إشارة من البابا لهذه الطائفة أن تتخلى عن عذريتها، وأن تدخل سباق الثعالب الذي يغطي الساحة الأمريكية من أقصاها إلى أقصاها...

ومع حديث الرئيس الأمريكي (بوش) عن الإرهاب الإسلامي... ومع سيول الكتب والبحوث والأفلام والبرامج التلفازية التي تسبّ رسول الله (ﷺ)، وتقدِّم الإسلامَ بأكثر الصور بشاعة وبعداً عن الحقيقة... ومع تصاعد نغمة الإسلاموفوبيا (أي التخويف بالإسلام) في ديار الغرب... مع هذا وذاك وبموازاته تجيء محاضرة البابا في الهجوم على الإسلام ونبيّه بعبارات واضحة قاطعة كالسكين لا تقبل مراءً ولا جدلاً...

وهذه ليست أول ولا آخر مرة يُخترق فيها معقل الكاثوليكية في العالم... فيميل بالميزان ضد الإسلام والمسلمين ونبيِّهم...

رغم الجهود المتواصلة للحوار بين الإسلام والمسيحية الكاثوليكية... ورغم منظومة التوصيات (الودّية) التي كانت تصدر في أعقاب كل مؤتمر للحوار بين الطرفين...

فلقد سبق وأن اختُرقت صهيونياً... في منتصف ستينيات القرن الماضي، عندما أعلنت البابوية براءة اليهود من دم المسيح (عليه السلام).

وما بين الاختراقين... جملة من الأقوال والمواقف والتصريحات التي تشكلت في المناخ نفسه، مع وبموازاة مواقف وتصريحات سعت إلى كسب ودّ المسلمين وتحقيق قدر من التقارب معهم لهذا السبب أو ذاك...

الهجمة البابوية الأخيرة على الإسلام ونبيّه (ﷺ) ليست بالأمر الجديد، وهي لا تعدو أن تكون حلقة من سلسلة حلقات مترابطة في الاتجاه نفسه...

ولكن الأمر الجديد هو دوافع هذه الهجمة ومسوّغاتها... وأغلب الظن أن قطاعات كبيرة من كاثوليكيي العالم لن يرضوا أو يرتاحوا لمحاضرة البابا... فضلاً عن المسيحيين الشرقيين وطوائفهم كافة...

ومع ذلك فقد وقع الفأس في الرأس، وتلقّت الأمة الإسلامية من رأس الكاثوليكية في العالم طعنة نجلاء في نبيِّها وعقيدتها... الّا أن هذا لن يزيدها إلا توحُّداً... وإلا محبة لرسولها العظيم (ﷺ) والتزاماً بتعاليمه.

والخاسر في هذه اللعبة هم الكاثوليك أنفسهم بتنازلهم عن ثوابتهم المذهبية، وفي بناء سدّ من الكراهية والبغضاء مع المسلمين... اللهم إلّا إذا رفض الكاثوليك أنفسهم مقولات البابا لأنها في بدء التحليل ومنتهاه لا تدل على أي قدر من الحصافة والحكمة!!



٤٦

من القدّيس إلى العاهرة!!...

«أصدر القضاء الفرنسي حكماً على الفنانة (بريجيت باردو) (٧٣ عاماً) بالسجن شهرين مع وقف التنفيذ، وتغريمها (١٥ ألف يورو). بتهمة الحث على الكراهية ضد المسلمين والإسلام. وهي المرة الخامسة التي تحاكَم فيها (باردو) بسبب معاداتها للعرب والمسلمين.

وكانت منظمات مكافحة العنصرية والدفاع عن حقوق الإنسان، قد رفعت دعوى ضد الممثلة الشهيرة التي بعثت برسالة إلى الرئيس الفرنسي (نيكولا ساركوزي) نشرتها الصحف، ندّدت فيها بذبح الأضاحي في عيد الأضحى، مستخدمة ألفاظاً مسيئة ومهينة للمسلمين.

وكانت (باردو) قد أصدرت كتاباً في عام (٢٠٠٤م) اتهمت فيه المسلمين بالإرهاب، ونددت بما وصفته بـ (أسلمة فرنسا على يد الغزاة المسلمين)». (مجلة المجتمع، العدد ١٧٩٩).

الخيط إذن موصول... بين القمة والحضيض... بين (بندكت) الرأس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية في العالم... و (بريجيت باردو)

ممثلة الإغراء والعرض الجسدي الرخيص على الشاشة السينمائية... بين القدّيس والعاهرة... يحمل الهمّ نفسه، وينبض بالقلق نفسه: الهجوم على الإسلام، وطقوسه، والتحذير من انتشاره في القارة الأوربية.

صحيح أن (بندكت) قد اعتذر بعد مقولته تلك عن الإسلام، ربما بسبب الضغوط العديدة التي ساقته إلى الاعتذار... ولكنه «قالها» وهو مؤمن بها حتى النخاع، تماماً كما أن الرئيس الأمريكي السابق (بوش) قد اعتذر عن مقولته «بأنها حرب صليبية» في أعقاب واقعة الحادي عشر من أيلول، ولكنه «فعلها» في غزوه لأفغانستان والعراق...

ثم تجيء (باردو) لكي تواصل المشوار، فتحثّ على الكراهية ضد الإسلام والمسلمين، وتندّد بذبح الأضاحي، وتتهم المسلمين بالإرهاب، وتحذّر من «أسلمة فرنسا على يد الغزاة المسلمين»!!

وهل ثمة فارق بين هذه المقولة الأخيرة، وبين ما سبق لـ (بندكت) أن قاله بخصوص الغزو الإسلامي العدواني للأمم والشعوب؟

أبداً... فما دامت «النيّة» قائمة في عقل ووجدان (بندكت) و (باردو)، وكل المسافات المتطاولة في الضمير الأوربي بينهما، والذي ينعكس بين الحين والحين في موقف أو تصريح أو إساءة، ليست واقعة رسوم الكاريكاتير أوّلها ولا آخرها... فإن هذه «النيّة» المبنية على أساس خاطئ معوجّ في فهم الإسلام، والقائمة على

كراهية المسلم، ستظل تفرز مواقف كهذه، سواء من قسس وكاردينالات يتربعون «القمّة»، أو من ممثلات ساقطات يتخبطن في الحضيض.

لكن هذا كلّه ـ إذا أردنا الحق ـ ليس سوى أحد جانبَيّ «الصورة» الأوربية عن الإسلام والمسلمين، فثمة الجانب الآخر الذي لا يقلّ ثقلاً وحضوراً وامتداداً في الساحة الأوربية... وذلك هو الإعجاب بالإسلام، وتقييم دوره الإنساني، وإسهامه المؤكد في بناء الحضارة الإنسانية... والوعد الذي يقدّمه في إعادة بناء المصير البشري، الذي وصلت به المذاهب الوضعية والأديان المحرّفة إلى الطرق المسدودة.

ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، يصدر كتاب أو بحث أو مقال في هذا الاتجاه، ويعلن شخص ذو مكانة متقدمة في الساحة الأوربية: إعلامي أو سياسي أو ديبلوماسي أو فكري أو فلسفي أو فني أو رياضي، إسلامه على رؤوس الأشهاد، مبيّناً الدوافع الحقيقية لانتمائه لهذا الدين، الذي يحمل سرّه المعجز في إقناع الناس أيّاً كان موقعهم في الزمن أو المكان...

ولعلّ هذا هو أحد أسباب «تشكّل» الوجه السابق القبيح للعقل الغربي، الذي يتّهم ويندّد ويدين ويسيء، ويعلن عداءه للإسلام والمسلمين.

إنهم ـ بالفعل ـ يخشون «انتشاره» في أوربا، ليس على الفترات الزمنية القريبة، ولكن على المدى البعيد...

فدونما قعقعة السلاح، ودونما إطلاق رصاصة واحدة، أو صاروخ واحد، سيقدّر لهذا الدين، الذي يحمل سرّه في تركيبه المعجز؛ أن يمضي بمشروعه الحضاري، إلى كل زاوية في العالم لكي يخرج الناس، كما أخرجهم يوماً، من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان والمذاهب الجائرة إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد والحتميات والطاغوتيات إلى عبادة الله وحده.



٤٧

موقع وسط بين الغلوّ والتقصير...

فئتان من المسلمين كان الرسول المعلم (ﷺ) يبذل جهده الموصول معهما لإعادتهما إلى الجادة، ووضعهما في الاتجاه الصحيح... في موقع وسط بين الغلوّ والتقصير... بين الإفراط والتفريط... بين التشدّد والتسيّب، لكي تكونا أقرب إلى روح هذا الدين، وحنيفيته، وسماحته، وصرامته وانضباطه في الوقت نفسه.

الموقع الوسط الذي لا يميل فيه المسلم ولا يجور على نفسه ولا على الآخرين، والذي لا يحمّل نفسه أكثر مما تطيق، ولا يطلق لها العنان ـ من جهة أخرى ـ فتنفلت وتتسيّب...

إنه (ﷺ) كان يخشى اندفاع بعض أصحابه باتجاه القطب البعيد طلباً للأجر، أو تحسّباً من الوقوع في الخطأ والتقصير. وكان يحذّر ـ في الوقت نفسه ـ بعضهم الآخر، ممن يشدّهم الإلف والاعتياد بعمقه الزمني، وثقله الاجتماعي والنفسي، إلى التفلت والتساهل الذي يتجاوز حدوده المعقولة... ولذا نجده (ﷺ) يصدر سلسلة من التعاليم والتوجيهات، ويمارس جملة من

المواقف، للعودة بأولئك وهؤلاء إلى نقطة التوازن المطلوب، وإغرائهم بها، وإلزامهم بمطالبها.

إنه ـ مثلاً ـ يقول: «**لا تزال أمتي على خير ما عجّلوا الفطور وأخّروا السحور**»، من أجل دفع أتباعه إلى التزام اليسر في التعامل مع ظاهرة الصيام، وعدم الاندفاع باتجاه تأخير الإفطار وتعجيل السحور لمدّ مساحة الامتناع والحرمان إلى ما وراء حدودها المعقولة طلباً للأجر!!

ولطالما أكد على أصحابه أنه (ﷺ) يصوم ويفطر، ويأتي زوجاته، ولا يكلّف نفسه ما لا تطيق، من أجل أن يكفّهم عن مواصلة الصيام، وما يتطلبه من جهد وحرمان قد لا يكونان مبرّرين، ويذكّرهم بالآية الكريمة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومثل ذلك شبكة من الأحاديث والتوجيهات والمواقف، التي كان يستهدف منها ردّ أصحابه إلى الجادة، ومنعهم من الغلّو الذي يثقل على النفس والجسد، ولا يتوافق مع روح هذا الدين، وتيسيره، وحنيفيته السمحاء...

ولطالما نادى أصحابه، وكل الذين سيجيئون من بعدهم جيلاً بعد جيل: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق**»!!

ولكنه ـ في مقابل هذا ـ لم يكن يتساهل مع فئة أخرى من المسلمين كانت تميل إلى التساهل بأكثر مما يجب، على حساب الثوابت العقدية والتشريعية والسلوكية... واعتمد، جنباً إلى جنب

مع القرآن الكريم، أقصى درجات التحذير من الذهاب بعيداً في هذا الاتجاه...

والشواهد كثيرة لا يحتملها مقال كهذا، وهي معروفة للجميع... ولذا سأقف عند واحدة منها فحسب: نظام الصلاة في المسجد... الوقوف صفوفاً منتظمة خلف الإمام دونما أي ميل أو انحراف... وممارسة الركوع والسجود وراءه بتوقيت محسوب لا يسمح لأي مصلٍّ على الإطلاق أن يربكه أو يخرج عليه.

إن كثيراً من الذين انتموا إلى هذا الدين، وبخاصة في أخريات عصر الرسالة، جاؤوا يحملون معهم تقاليد البداوة وعاداتها، التي ترفض الانضباط والنظام وتعشق الفوضى والتسيّب، وكان لا بدّ من بذل جهد مضاعف معها، وبخاصة في مسألة تعبُّدية كالصلاة التي هي عمود الدين، من أجل تعليمها، بل إرغامها على «النظام»... واعتمدت أقصى درجات التنديد بمن يشذ عن ذلك، **«إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج»**، كان رسول الله (ﷺ) يقول لهم... استووا صفوفاً **«ولا تذروا فرجات للشيطان»**... بل إنه (ﷺ) مضى إلى أبعد من ذلك، فندّد بالذين يسبقون الإمام في ركوعه وسجوده، وحذّرهم من أن يُمسخوا حميراً يوم الحساب!!

ونحن نستطيع أن ندرك الحكمة من موقف متشدّد كهذا، بمجرد أن نتذكر أننا أمام معادلة صعبة... حالة من التسيّب واللاانضباط، وكراهية النظام، عمرها مئات السنين، كان على

الرسول (ﷺ) أن يردّها إلى الجادة في سنوات معدودات... شأنها شأن عادة شرب الخمر وتأصّلها في الحياة العربية الجاهلية لمئات السنين.

ولقد نجح هذا الدين، وآياته البيّنات، ومعلّمه الكبير، في الاختبارين معاً... وتلك هي إحدى معجزات الإسلام... بحيث أن الكثير من الغربيين «المتحضرين» الذين انتموا إلى هذا الدين، كانت رؤيتهم للصلاة الإسلامية المدهشة في نظامها، عاملاً من أهم العوامل التي ساقتهم لهذا الانتماء...



٤٨

هوامش
على إعادة تشكيل العقل المسلم...

إعادة تشكيل العقل المسلم ليست أمانيّ ولا أحلاماً، وإنما هي منظومة من الضوابط والشروط التي توفّر مناخاً صالحاً للفعل الحضاري.

ما الذي أراد الإسلام أن يفعله بصدد تهيئة أو تخطيط مناخ ملائم للفاعلية العقلية، وبالتالي جعل العرب القادمين من أعماق البداوة قادرين على أن يكونوا أمة متحضّرة، مضت عبر قرون طويلة مالكة زمام النشاط المعرفي والحضاري متسنّمة قيادة العالم؟

ما الذي جعلها تنطفئ فيما بعد، وتفقد قدرتها على التعامل مع هذه الشروط القرآنية والنبوية، فتجعل من عقولها أداة للتعامل الجادّ مع الكتلة الكونية ومع العالم، وتستعيد ـ بالتالي ـ قدرتها على قيادة هذا العالم من منظور حضاري قبالة تحدّيات الحضارة الغربية التي طالما قال عنها (أرنولد توينبي)، المؤرخ البريطاني المعروف، أنها تكاد تلتهم بقايا الحضارات المتآكلة التي تلفظ

أنفاسها بما فيها حضارة الإسلام أو ثقافة الإسلام، التي إن لم يتداركها المسلمون أنفسهم؛ فلنقرأ عليها السلام.

إن الإشارة إلى العقل وإلى الفاعلية العقلية والشروط التي يجب أن تتحقق بها، والتي تضع العقل المسلم في صميم الإنجاز؛ لا تعني أبداً إهمالاً للطاقات البشرية الأخرى في التعامل مع العالم: كالروح والوجدان وصيغ التربية والإعداد.

إننا نختلف عن الغربيين الذين ـ على تألّقهم العقلي والفكري ـ وقعوا في خطيئة «إما هذا أو ذاك»، إما العقل وإما الروح.

نحن لا نعاني من هذه المشكلة في نسيج حياتنا الإسلامية. ففي مقابل «إما هذا أو ذاك» عندنا عبارة «هذا وذاك»، العقل والروح معاً.

فبعيداً عن إثارة أية قضية خلافية أو جدلية، يجب التأكيد على الفاعلية العقلية، وعلى منظومة الشروط التي وضعها القرآن الكريم والسنّة النبوية لجعل العقل المسلم قديراً على العطاء.

وهذا لا يعني مطلقاً إبعاداً للجوانب الأخرى من الكينونة البشرية، المعنيّة بالروح والوجدان والنشاط التربوي. وإنما هي أولويات فرُضت علينا فرضاً ما دام أن الصدمة الاستعمارية التي دُهينا بها قبل قرون، قد قادت إلى موقفين خاطئين للأسف الشديد: موقف الانتحار الحضاري، أي الاندماج الكلّي في الحضارة الغالبة والضياع فيها، والموقف الآخر موقف هروبي، انعزالي، رفض كلّيةً التعامل مع تلك الحضارة... رفض حتى السيارة

والثلّاجة والمدرسة... إلى آخره، باعتبار أن هذه الحضارة حضارة كافرة يجب أن نكون حذرين في التعامل معها.

وقد حقّق هذان الموقفان هزائم متلاحقة، قادت في إحدى جوانبها إلى ذوبان حضارتنا ومثقفينا، الذين يمثلون واجهتها في كيان الحضارة الغربية الغالبة، وقادت في جوانب أخرى إلى خسارة فرصة ممتازة لتوظيف المعطيات الإيجابية الفاعلة في الحضارة الغربية لخدمة وتعزيز الوجود الإسلامي في هذا العالم.

إذن نحن في حاجة إلى أن نجد طريقاً وسطاً، لا يميل باتجاه الانتماء والاندغام الثقافي في الغيّر، ولا يميل باتجاه الهروب والانعزال عن معطيات الغير، التي هي إرث مشترك في معظم نسيجه، من حقّنا أن نأخذ منه ما ينسجم وقناعاتنا.

وهكذا فإن مصطلح «تركيب العقل وإعادة تشكيله»، يعنى بالدرجة الأولى بالبحث عن طريقة عمل ملائمة في لحظاتنا الراهنة من القرن الحادي والعشرين، تعيد للمسلمين قدرتهم على الفاعلية والعطاء، وتمكّنهم من مجابهة تحديات الحضارة الغربية، وتقول للناس أن العقل المسلم ليس بأقل من العقل الغربي إن لم يَفُقْه قدرةً على الفاعلية، بسببٍ من أن كتاب الله وسنة رسوله (عليه الصلاة والسلام) وضعتا جملة من الضوابط والشروط التي تؤكد المساحة الكبيرة التي أولاها الإسلام للفاعلية العقلية كمرتكز للمعرفة والتحضّر، وكأنها تريد أن تقول لنا: قوموا ثانية فاقدحوا زناد عقولكم ما دام أن القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام يقولان بهذا.

وليس ثمة بعد هذه المحاولة، أيّ محاولة إشعال فتيل العقل المسلم في هذا العالم، من طريق يمكّننا من أن ننهض ثانية لنجابه الموقف بصيغة ندّية، وأن نكون أكفاء التحديات الثقافية الغربية الغالبة.

قد يقول قائلون ممن تعتور أذهانهم بعض الشبهات؛ أن المنهج القرآني والنبوي كان صالحاً لبيئة أو مكان محدّدين، فما لنا نلتزم به في القرن الراهن ونحن في مجابهة حاسمة مع حضارة تملك الكثير؟

والجواب، أن هذا المنهج القرآني الذي يستمدّ خطوطه العريضة ومرتكزاته وثوابته من أوامر وتعاليم قادمة من الله سبحانه، الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرّ وأخفى، والذي يحيط علماً بكل شيء... هذا المنهج يمكن أن يشكّل برنامج عمل في كلّ زمن ومكان. وهو منهج مرن قادر على أن يدخل في كل عصر... في قرن عشرين أو في قرن خامسٍ وعشرين لكي يفعل ما فعله.

إننا نتذكر هنا مقولة المفكر الفرنسي المعروف (روجيه غارودي) من أن شهادة **(لا إله إلّا الله)** هذا الإثبات الأساسي الذي هو مرتكز العقيدة الإسلامية، قادرة على أن تزحزح الجبال عن مواضعها، إن نحن عرفنا كيف نستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية تلك المؤشرات والثوابت التي تعيدنا ثانية إلى قلب العالم، فاعلين قديرين على المشاركة والعطاء، والمساهمة الفاعلة في نسيج الحركة العالمية.

٤٩

وثنية بالطول والعرض...

للعصر الحديث وثنيته هو الآخر... وثنية (الصورة) التي تعلّق على رؤوس الناس في دوائرهم ومؤسساتهم، وتباع وتشترى في الأسواق، وتعلق على الصدور، ويطاف بها في المناسبات وفي غير المناسبات... وتؤطّر، وتمسح جيداً، ويقف العبيد الجدد إزاءها معجبين... خاشعين!!

للعصر الحديث وثنيته هو الآخر... ولكنها وثنية بالطول والعرض فقط، بينما كانت أوثان الجاهليين في العالم القديم تملك العمق أيضاً... ربما لأن فن التصوير لم يكن قد استكمل أسبابه بعد... والأمر سواء... صورة تعلّق على الرؤوس الكبيرة في الأمة وتوقّرها جماهير الناس... أو وثن يطوف به رجال الملأ، وتتمسّح عند أقدامه عامة الناس!!

ولحظة دخل رسول الله (ﷺ) مكة فاتحاً، وانتهى إلى الكعبة، لم يفرّق وهو ينزل معوله في أوثانها بين الحجارة المنحوتة، وبين الصور البدائية للأنبياء السابقين، فأمر بإزالتها جميعاً، وقال عن صورة مرسومة على جدار الكعبة لإبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)

وهما يستقسمان بالأزلام: «كذبوا، ما كان إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بها قط».

إن الإسلام لم يحرِّم النحت أو التصوير لذات النحت أو التصوير، ولكنه حرَّم كلَّ ما من شانه أن يقود الناس إلى نوع من التعبّد الوثني لأبناء جنسهم، في أي زمن أو مكان، ما دام الله سبحانه قد خلق بني آدم كلهم سواء... ومن ثم فقد لبس المسلمون ثياباً مرسومة، واستخدموا ستائر منقوشة، واتكؤوا على وسائد مصورة وملونة، وحفروا ونحتوا المحاريب والمنابر والمآذن والقباب، ولم يقل أحد أن هذا حرام!

لكن هذه!

هذه العلاقة المزيفة، والمحزنة في الوقت نفسه، بين الإنسان الذي جاء الدين لكي يحرّره من الأوهام، وبين الصور والتماثيل التي تذلّ عنقه، وتحني رأسه وهو المخلوق الذي أريد له أن يكون (سيداً) على العالمين! وها نحن الآن في العصر الحديث نعود ثانية إلى زمن الوثنية.

إن أشد الدول تقدماً تكتسح زعماءها اليوم هذه الروح... هذه الرغبة العاتية في أن يفرضوا التعبّد والتقديس على أتباعهم وشعوبهم، وفي أن يخيّلوا لهم، بشكل أو بآخر، أنهم مصنوعون من طينة أخرى غير طينتهم، متربّعون في مواقع أعلى بكثير مما يقدرون على الصعود إليه...

إن أي زعيم جديد يجد نفسه مدفوعاً إلى هذا الموقف، فلا

يقرّ له قرار حتى يرى (صورته) معلّقة في المؤسسات والدوائر والأزقة والشوارع والساحات والميادين، ملصقة على جدران المساجد والكنائس والدور... مرفوعة على الجباه والصدور، مطافاً بها في التظاهرات والمسيرات.

إن هذا يذكّرني بما قاله يوماً (أكنازسيلوني) الشيوعي الإيطالي، الذي ارتّد عن الشيوعية لأكثر من سبب، من أنه رأى جموع الناس في موسكو ـ في ثلاثينيات القرن الماضي ـ تحج إلى قبر (لينين) المصنوع من الخشب المتقن، وأنهم يقفون طوابير كي يجيء الدور على كل واحد منهم في أداء العمرة إلى الصنم، وأنه حدّث أحد رفاقه هناك بأنه يتمنى لو يتاح له إحراق هذا القبر واستئصاله حماية لمبادئ (لينين) نفسه!!

ومن ثم فإن وثنيتنا الحديثة ليست وثنية الطول والعرض فحسب... ليست وثنية الصورة المسطحة فحسب... ولكنها ستؤول ثانية إلى ما كانت عليه شقيقتها البائدة: وثنية الأصنام التي يطاف حواليها، وتقف جموع الناس أمامها بخشوع، منكّسة الرؤوس والأبصار...



٥٠

ولا حول ولا قوة إلّا بالله...
وطننا الغالي...

ومن منا لا يحب وطنه الغالي: العراق؟!!

ومن منا لا يريده قوياً عزيزاً موحّداً؟!.

ومن منا لا يحلم باليوم السعيد الذي يستعيد فيه العراقيون وحدتهم الوطنية، التي يلتقي تحت سمائها الكبيرة العربي والكردي، والمسلم والمسيحي، والسنّي والشيعي، مواطنين متحابين يربط بينهم، ويوحّدهم، الهدف المشترك، والمصالح المتبادلة، والآمال المشتركة، والعمق التاريخي الممتد عبر مئات السنين؟

إن وحدة الوطن الغالي، وتوحّد العراقيين تحت مظلة المحبّة والعطاء ليس اختياراً، ولكنهما قدر هذا الشعب، الذي قدّم للعالم منذ فجر التاريخ، وعبر العصور الإسلامية كافة، الشيء الكثير، مما يشهد به ويؤكّده الآخرون صباح مساء...

لقد ساهم العراقيون في عمليات الفتح الإسلامي الكبرى، وشاركوا في إقامة الدول والممالك والإمبراطوريات، وأعانوا

الحضارة الإسلامية على التنامي والاستمرار، حتى بلغت قمة منحناها في العراق ـ تحديداً ـ عبر القرنين الثالث والخامس الهجريين.

وشهد العصر الحديث حضوراً ملحوظاً للدور العراقي المؤثر في مختلف الأحداث والخطوب التي ألمّت بالأمة، وليس أقلّها بطبيعة الحال ما قدّمه العراقيون للقضية الفلسطينية.

ومما لاشك فيه أن قوة العراق في وحدته الوطنية، وقدرته على التفوّق والعطاء ومجابهة التحديات، في مدى تلاحم شعبه بأديانه وقومياته ومذاهبه كافة.

إننا بمجرد إلقاء نظرة على خرائط العالم، يتبيّن لنا كيف أن الدول الكبرى ذات المكانة المتميزة، هي تلك التي تمتد عبر مساحات أوسع. وذلك أمر طبيعي لأن الامتداد الجغرافي ينطوي ـ بالضرورة ـ على عناصر القوة البشرية والطبيعية والاستراتيجية التي تؤهّل تلك الدول لأداء دور أكثر فاعلية.

فما لنا نحن ننجرّ بالاتجاه المضاد، فنسعى إلى تقزيم الدور العراقي في العالم المعاصر، بتفكيك وحدته وتشتيت طاقاته؟

إن أوربا عرفت، عبر العقود الأخيرة كلمة السرّ في تقدّم الأمم: إنها التوحّد الذي يلمّ الطاقات، ويسارع بدفعها إلى الأمام، فأنشأت السوق الأوربية المشتركة، وأقامت الاتحاد الأوربي الذي طوى جناحيه على عشرات الدول...

إن الدول الاستعمارية التي فتّتت الوطن العربي والإسلامي إلى

ما يزيد عن الخمسين دولة مهيضة الجناح، من أجل ابتزازها، وقطع الطريق أمام توحّدها، الذي يقف في مواجهة الابتزاز، عادت ـ مرة أخرى ـ لكي تجزئ المجزّأ، فتزيدها ضعفاً على ضعفها من أجل تحقيق الهدف نفسه، وها نحن نرى بأمِّ أعيننا اليوم ما تشهده الساحات العربية والإسلامية مما يؤذن بالويل والثبور...

ولنتذكر ـ دائماً ـ أن العدسات اللّامة تعرف كيف تجمع الأشعة المبعثرة لكي تمكّنها من إحراق الدنس، وإنارة الطريق لصانعي المستقبل، وكيف أن العدسات المفرّقة تبعثر الأشعة فتفقدها القدرة على الإضاءة والإحراق...

إن على العراقيين في لحظة الخيار الصعب التي يجتازونها الآن، أن يتعلموا من سنن الله سبحانه في عالم الطبيعة، وأن يبذلوا قصارى جهدهم للمّ طاقاتهم من أجل مستقبل يليق بكلمة (العراق)...

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].



٥١

وقفة عند بوابة رمضان...

ها هي ذي أمة المليار ونصف المليار مسلم تقف عند بوابة رمضان، معاهدةً الله سبحانه على الامتناع عن الطعام والشراب... وحفظ الجوارح من كل شائبة، وملاحقة خطرات القلوب... معاهدةً إياه على مجافاة النوم والاسترخاء... وعلى سهر الليالي...

ما الذي يعنيه هذا سوى أن هذا الشهر تجديد للعقد المقدس بين الله والإنسان... وشحن لإرادته... واشعال الفتيل في طاقاته الروحية للمضيّ إلى فوق...

من أجل ذلك يقول جلّ في علاه في حديث قدسي **«كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا الذي أجزي به...»...**

يا الله!... ما أروعها من عبارة تهزّ الضمائر والقلوب... وتغري بالانسلاخ الكامل عن إغراءات الحياة الدنيا والتجرّد لله... **«فإنه لي وأنا الذي أجزي به»!!**

فيا أيها المسلمون في كل مكان!. اكسروا التقاليد الرتيبة، التي جعلت من رمضان مجرد تغيير اعتيادي في روتين الأيام... وتذكّروا أنه تجديد للعقد المقدس، وأن عليكم أن تستجيشوا أعمق

نقطة في خلايا القلب والعقل والروح والوجدان، من أجل أن تكونوا بحجم رمضان كما يريده الله ورسوله... لا كما اعتاده المقلّدون...

إنه يجيء في كل عام مرة واحدة يحمل لكم البشرى... بشرى التطهّر من كل ما مارستموه من أخطاء، والانطلاق من جديد، متحرّرين، متخفّفين، للاقتراب أكثر فأكثر من رضا الله!!

والذكي الذكي من يعرف قيمة الفرص المتاحة أمامه لكي يهتبلها، في إعادة بناء سلوكه، وسدّ الثغرات التي اخترقه بها الشيطان، والانطلاق ثانية عبر الصراط الواصل إلى الله...

إن هذا الدين سخيّ مع أتباعه... والله سبحانه هو الأكثر سخاء... عندما فتح الطريق على مصراعيه للخروج من دائرة (الإثم) إلى فضاء التطهّر والنقاء... ومنحهم الفرص التي لا تعدّ ولا تحصى للعودة إليه... جلّ في علاه...

ورمضان، هو واحد من هذه الفرص للتحقق بالمطلوب... فليست الخطيئة أمراً كلياً يطوّق الإنسانَ من جهاته الأربع فلا يستطيع الخلاص منها، بإرادته، ولا بدّ من معاونة الآخرين... إنما هي في المنظور الإسلامي جزيئات بسيطة تنتشر كالطفح على حافات السلوك وتنتظر الجهد البشري لإزالتها... وهو جهد ليس بالصعب ولا بالمستحيل إذا صحّ العزم وخلصت النيّات...

ويجيء رمضان لكي يمنح المنتمين إلى هذا الدين الفرصة لإزالة الطفح واستعادة السّوية الصحية للسلوك...

فإنك بمجرد أن تشحذ إرادتك، فتكفّ عن الطعام والشراب،

وتحفظ جوارحك من كل شائبة، وتلاحق خطرات القلب... تكون قد بدأت الطريق... ومع الكفّ والحفظ والملاحقة، جهد موصول من التعبّد والتحنّث وسهر الليالي بحثاً عن المزيد من الكسب للرصيد الإيجابي المفتوح، وتضييق الخناق على بؤر الشر والفساد والمروق...

«فإنه لي وأنا الذي أجزي به»... لأنه جلّ في علاه يعلم ما يكلّفه الصوم من مشقة، وما يتطلّبه من صبر، ليس ـ فقط ـ عن الطعام والشراب، وإنما عمّا اعتاد عليه الناس، وأصبح جزءاً أساسياً من حياتهم اليومية عبر أحاديثهم ومعاملاتهم من رياء وغيبة وتنابز... وغيرها من عشرات الممارسات الخاطئة، التي يجيء التوقف عنها بقوة الإرادة الإيمانية بمثابة إعلان للحرب على «الخطيئة» مهما ضؤلت ودقّت... وهذا يتطلب جهداً فائقاً لن يكون جزاؤه إلا ذلك الذي يجيء من عند الله سبحانه... وما أعظمه من جزاء!..



الفهرس





العالم ينتظر البديل.. وقضايا أخرى..

فبالهدى الربّاني المستقيم كالسهم، الماضي كالصراط، يستطيع المسلم التعاطي مع كل ما يعرض في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، من تجارب وخبرات، جنحت بالسائرين بعيداً عن "كلمات الله"، أي منهجه العادل، ذات اليمين وذات الشمال، فضيّعتهم، ويجيء هذا الدين لكي يحكم عليها، فيصحّح وقفتها الخاطئة، ويقدم البدائل الصحيحة المنضبطة، من أجل جعل الحياة البشرية بالمستوى الذي أراده لها الله سبحانه وتعالى، والذي يليق بكرامة الإنسان: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا} (الإسراء، الآية 70).

وابتداءً من مقال (يهوذا رشدي) وانتهاءً بمقال (وقفة عند بوابة رمضان)، مروراً بشبكة من المقالات في السياسة والفكر والتاريخ والحضارة والمنهج، سيجد القارئ نفسه إزاء ما يجب أن يعرفه ويطلع عليه، لكي يكون جوابه واضحاً قاطعاً كالسكين. إننا كإسلاميين في حالة جدلٍ متواصلٍ مع خصوم هذا الدين، أو في الأقل مع أولئك الذين لا يكادون يعرفون شيئاً عن ضوابطه ومعطياته وربما بداهاتهِ... وهذا يحتّم علينا أن نتداعى جميعاً للاستجابة لهذا الجدل، وتقديم الموقف السليم الذي يفحم الخصوم، ويردّ الضائعين إلى الطريق.





www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com